م مسرح

النهاية

دار سعاد الصباح

تأليف : صمويل بيكيت / ترجمة وتقديم : أحمد عمر شاهين

Bibliotheca Alexandrina
0194991

النهـــاية

الطبعـــــة الأولى ١٩٩٣
جميع الحقـوق محفوظة ©
دار سـعـاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
القاهرة - ص.ب : ١٣ المقطم
٢٦٧ دقي
تليفون : ٣٤٩١٧٢٧
٣٤٩٧٧٧٩
٧٠٩٥٨٣
فاكس : ٧٠٩٥٦٣
٥٠٦١٠٣٠

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٢٤٤٣
I.S.B.N. 977—5344—81—6

الاشراف الفنى : حلمى التونى

اهداءات ١٩٩٩

دار الجميل

القاهرة

م

مسرح

النهاية

تأليف : صمويل بيكيت

ترجمة وتقديم : أحمد عمر شاهين

823
ب ي ك
١١٢٨٥

دار سعاد الصباح

هذه هى الترجمة الكاملة للقصص الطويلة الثلاث من كتاب :

Stories and texts for nothing

By : Samuel Beckett

والقصص هى :

1. **The Expelled.**
2. **The Calmative.**
3. **The End.**

مقدمـــــة ...

بيكيت وعالمــه الروائى

صمويل بيكيت كاتب يختلف عن معظم المبدعين فى أنه لا تهمه الشهرة ، لا ولم يسع إليها ، ولا يسهم فى الحياة الأدبية العامة ولا يحضر أى اجتماعات أدبية ، ونادراً ما يوافق على إجراء حوار معــه ، كمـا لا يحب أن يتحدث عن كتبه أو الإفصاح عن أفكاره .

وقد ظل حتى سن الخمسين تقريباً وهو غير مشهور ، مع أنه يمارس الكتابة والنشر منذ أن كان فى الخامسة والعشرين من العمر .

بدأت شهرته بعد نجاح عرض مسرحيته « فى انتظار جودو » على المسرح فى باريس سنة ١٩٥٣ ، وبعد ستة عشر عاماً من ذلك التاريخ حصل على جائزة نوبل فى الأدب ، إلا أنه كلما ازدادت شهرته ، كلما ازداد تراجعاً إلى الظل ، وكلما غدت أعماله أكثر رعباً وتعقيداً .

طوال عمره كان خجـولاً ، ميالاً إلـــى الصمت فى المواقـــف الاجتماعية ، حتى يمكننا القول إنه فى هذه المواقف كان ضحية لحيائه وصمته . يكره الاجتماعيات العامة وكثرة الكلام ، وإن كان وفيّا لصحبته الصغيرة الخاصة من أصدقائه المخلصين ، حتى التفاصيل الببليوجرافية الخاصة بحياته ، أضحى من الصعب الحصول عليها ، حتى بدا ما هو معروف منها متناقضاً بشكل ما . ولا يبقى للقارئ فى النهاية ، سوى كتبه ، يُعرف الرجل من خلالها ويُحاول سبر أغوار أفكاره عبرها .

وبالرغم من غموض أعماله ، وغموض حياته الشخصية ، وبالرغم أنه كتب مسرحيات بلا ممثلين ، وفصول مسرحية بلا كلمات ، وروايات

بلا حبكة أو علامات ترقيم ، فهو أحد أشهر الكتاب الأحياء فى العالم الآن ، وأحد أبرز الظواهر الأدبية تفرداً فى أعماله .

كانت حيرة النقاد تجاهه أكبر ، وقد واجهت الناقد « هيو كنر » الذى كتب كتابين عن بيكيت أولهما سنة ١٩٦١ بعنوان : بيكيت : دراسة نقدية – مشكلة كبيرة فى محاولته استخلاص شىء من حواره معه ، فلم يخرج من تلك المقابلة إلا بدوار ذهنى ، حتى إنه حينما خرج من عنده تاه ودخل حارة مسدودة ، وكل ما علق بذهنه هو نصيحة بيكيت له أن يذهب ويقرأ أعماله ويصغى إلى شخوصه لعله يستطيع أن يستنطقها ، وقد أخذ الناقد بنصيحته وعكف على أعمال بيكيت جميعها ، فدرسها وحللها وشرحها وألقى الضوء على ما بها من أفكار ، وأصدر سنة ١٩٧٦ كتابه الثانى عنه « دليل القارئ إلى أعمال بيكيت » .

والقارئ فى حاجة لمثل هذا الدليل ليحصنه ضد عادات القراءة المعتادة والمتعارف عليها ، فبيكيت لا يكتب قصائد نثرية ، أو تعبيراً عن حالات مزاجية ، ودائماً هناك قصة فى أعماله ، وهى غالباً قصة غير كاملة ولا تتركز فى الواقع حول ما نقرؤه .

فى إحدى التمثيليات الإذاعية التى كتبها « الجمرات » – وقد ترجمت إلى العربية – تحتوى على حبكة ممتعة ومعقدة ، وفيها من تفاصيل المشاهد ما يوفر للكاتب مادة لرواية طويلة لو أراد أن يكتب قصة ، بالنسبة لبيكيت لم تكن القصة هنا مهمة ، فلم يركز عليها ، كان المهم عنده هو إحساس القارئ بالتجربة التى تسردها القصة ، تجربة يعيشها حطام رجل أنانى ، تصك أذنه طوال اليوم أصوات البحر ، وهو جالس يتحدث ويتحدث ليغرق ذلك الصوت الذى يصله ، يجسد بحديثه أمامنا أشباح من عرفهم ، أباه الذى غرق ، زوجته التى هجرها ، ليس لأنه يستمتع باسترجاع صورهم ، أو تشوقاً لصحبتهم ، ولكن

لأن حضـــورهم المتخيل أفضـــل لديه من مواجهة النفس التى تحاصرها العزلة .

* * *

حينما منح جائزة نوبل للأدب انقسم النقاد – كالعادة – إلى فريقين ، فريق هلل وأثنى على هذا الاختيار ، وفريق هاجم هذه الخطوة ، وقد لخص أحد النقاد رأى هذا الفريق الأخير بقوله « هناك من هو أولى بهذا الاختيار ، فبيكيت ارتضى فى النهاية أن يضع فى أدبه اللا شىء فى كلمات وأن يبنى عملاً يتكرر إلى ما لانهاية » .

وكم فى هذا القول من مغالطة ، مغالطة نتجت عن فشل فى تفهم أعماله وشخوصه . حقًا إن أعماله جميعاً كما يقول الناقد ناثان سكوت تبتعث من بدايتها إلى نهايتها عالماً يكون فيه اليأس وهزيمـة الإنسان مطلقين ، حتى إنهما يتجاوزان إمكانية إضفاء الطابع الدرامى عليهما ، عالم يعيش فيه الفرد فى تلك المناطـق المحفوفـة بالمخاطـر المتقلقلـة المؤلمة ، عالم الضياع التام والعوز المطبق ، أبطاله آدميون مسنون عور وعرج وسكارى ، محطمون نفسيًا ، يتسربلون بنتف من الخرق ويسكنون تحت شجرة جرداء أو فى صفائح القمامة أو المصحات العقلية أو على أرض باردة مهجورة تحت سماء فارغة لا تقدم عزاء . أبطاله بلا يقين من أى شىء ، من أنفسهم أو مكانهم أو ما حولهم ، عاجـزون عن الاستحواذ على اللحظة الراهنة ، وحيـدون بلا علاقات وحتـى حيـن يعثـرون علـى منبـوذ آخـر فى وحشتهم ، يكونـون قد فقـدوا براعـة التـواصل ، وهكـذا فإن صـور أبطالـه هى صـورة التعريـة والتجريـد والإجهاض والخسران . لكن إذا قرأنا أعماله بإمعان ، أدركنا كم تختلف شخصياته بعضها عن بعض ، وأنه لم يحدث أن كرر نفسه .

لكن الذين يرفضونه والذين يمجدونه يتفقون بأن كتاباته من أكثر المحاولات تفرداً فى عالم الأدب ، وتميزاً أيضاً فى قطيعتها مع ما كان يطلق عليه أدباً فى العصور السابقة ، وما تقدمه رواياته يتميز بالكشف عن الدافع الذى قام على أساسه كل الأدب الجديد المسمى بالأدب الضد ، والذى يعتمد على عدم الثقة بإمكانية أى تطابق حقيقى بين الكلمة والواقع الإنسانى . وبذلك يعتبر البعض بيكيت أهم شخصية فى كتاب الرواية الجديدة ، روب جرييه ، ميشيل بوتور ، كلود سيمون ، ساروت ، مارجريت دورا ... وغيرهم .

* * *

ولد صمويل بيكيت فى مدينة دبلن بأيرلندا فى الثالث عشر من إبريل سنة ١٩٠٦م وتلقى تعليمه هناك فى كلية ترينيتى ، وكانت نشأته أيرلندية بروتستانتية ، ذهب ليعيش فى باريس خلال العشرينات وأصبح مدرساً للغة الإنجليزية من سنة ١٩٢٨ حتى ١٩٣٠ حين عاد إلى أيرلندا ليصبح مدرساً للغة الفرنسية فى كلية ترينيتى لمدة سنتين ، ثم رجع إلى فرنسا حيث يعيش منذ ذلك الحين .

ظهر فى المشهد الأدبى الفرنسى كعضو فى الجماعة التجريبية التى أحاطت بجيمس جويس فى باريس ، وقد ربطته بجويس صداقة عميقة ، وكان ذلك طَبَعِيًا فهو يشترك مع جويس فى كثير من النواحى الاجتماعية والثقافية ، ليس فقط لأن جذورهما الثقافية والاجتماعية متشابهة فجويس أيرلندى أيضاً ومن مواليد دبلن ، ولكنهما كانا ضحية للكآبة ، وإن اختلف سببها فى حالة كل منهما ، فجويس كان يعانى من كآبة رجل امتد به العمر ووهب نفسه لعبقريته الخاصة وتحمل رفض الناس لها ، بينما بيكيت الشاب آنذاك بدا وكأنه مولود فى الكآبة حتى يمكن القول إن طفولته تختلف عن طفولة بقية البشر ، وقد جمع الصمت صداقتهما ، فكانا

يجلسان معاً عدة ساعات دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وقد كان جويس معجباً به واعتبره كاتباً واعداً .

بدأ حياته الأدبية بنشر ديوان من الشعر بعنوان « الطالع » سنة ١٩٣٠ ، أتبعه فى العام التالى بكتيب يشتمل على دراسة عن الروائى الفرنسى مارسيل بروست ، وفى سنة ١٩٣٤ أصدر مجموعة قصصية بعنوان « وخزات أكثر منها ركلات » ورغم أنها تقليدية بشكل ما ، فهى قد تكون مدخلاً لقراءة أعماله التالية ، وحينما أصبح مشهوراً وأراد ناشره إعادة طباعتها لم يوافق إلا بعد نقاش وتردد طويل ، وربما يكون محقًا فى تردده لأنها بالفعل لا تهم سوى الدارسين .

بطل قصص هذه المجموعة شخص واحد يدعى « بيلاكوا » طالب فى دبلن يستكشف أفراح الجنون بطريقته الخاصة والأصيلة تماماً ، سواء فى دراسته أو تجواله أو شربه للخمر وتناوله الأطعمة الفاسدة وروايته لخيبته ، والقصص مليئة بالمرح القاسى والرؤى المهلكة ، باختصار فإنها تحوى عالم بيكيت الغريب كله .

فى سنة ١٩٣٥ أصدر ديوانه الشعرى الثانى بعنوان « عظام الصدى » وفى سنة ١٩٣٨ أصدر أولى رواياته « مورفي » وكان قد كتب رواية قبلها بعنوان « حلم بشرى لنساء عاديات » إلا أنه لم ينشرها حتى الآن .

رواية « مورفى » رواية أيرلندية جدًا فى خلفيتها وصورها ، وتعتمد أساساً على تجربة المؤلف فى دبلن ولندن أثناء شبابه خاصة تلك الفترة التى قضاها كممرض فى مستشفى للأمراض العقلية .

والرواية ملهاة مفجعة ، غنية بمرح قاس إذا جاز القول ، وهو طابع مميز لكتابات بيكيت ، كذلك حفلت الرواية بالابتكارات اللغوية . ومن ناحية تاريخية يمكن اعتبار هذه الرواية قنطرة بين روايات جويس وأدب مابعد الحرب العالمية الثانية الذى تحتل أعمال بيكيت مكاناً بارزاً فيه .

لم يُيد بيكيت فى هذه الرواية قدرته الخلاقة فى إبداع الشخصية والموقف الروائى فقط ، بل كتبها بحيوية بالغة وأسلوب ممتع يعود بنا إلى عمل الكاتب الفرنسى « رابيليه » الشهير « جارجنتوا وبانتاجرويل » .

منذ عام ١٩٤٥ بدأت أعمال بيكيت تستحوذ عليه بشكل كبير وبطريقة تثير الدهشة ، فقد اعتاد أن يكتب كل شيء بلغتين ، مرة بالفرنسية ، ثم يترجمه إلى الإنجليزية بالدرجة نفسها من الامتياز ، وتوالت أعماله بالفرنسية أولاً ثم بعد سنوات قلت أو كثرت يصدره بالإنجليزية .

وقد كتب قصصه الثلاث والتى نقدمها فى هذا الكتاب بين عامى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ونشرها بالفرنسية سنة ١٩٥٥ ثم بالإنجليزية سنة ١٩٦٧ ، وهى تحمل بذور أعماله اللاحقة كلها ، وسنعود إليها بعد قليل .

قبل نشر ثلاثيته الشهيرة ، كتب رواية « ميرسيه وكاميه » سنة ١٩٤٦ ، عن عجوزين يتواعدان على القيام برحلة خارج المدينة ، لكن يفوتهما اللقاء عدة مرات ، ولن تكون رحلتهما سوى تعاقب أجوف للذهاب والإياب بين المدينة والريف ، فما أن يغادرا المدينة حتى يحسا بالحاجة إلى العودة إليها ، وما يكادان يستقران من جديد حتى يأخذهما الحنين إلى رحيل آخر ، ليكون مقدمة لرحلة أخرى ، ويظل الأمر كذلك حتى افتراقهما النهائى ، ولم يكن عجزهما عن الحركة فى حقيقته إلا انعكاساً لعجز آخر ، هو استحالة تخلصهما من الزمن ، والانطلاق وراء أحلام ليس لها علاقة بالواقع ، وكانت قدرة أحدهما على الكلام نادراً ما تتفق مع قدرة الآخر على الإصغاء له .

فى سنة ١٩٥٣ أصدر رواية « وات » هذه الشخصية التى لا تحل الطمأنينة عليها إلا عندما تدرك أن عليها التخلى عن البحث عن معنى ، وهكذا تعلم ألا يحاول مطلقاً الجمع فى لغته بين مجمل الأحداث ومعانيها ،

لقد اكتشف الحياة فى الزمن الحاضر ، وقبل مطمئناً أنه لم يفهم منها أو يتعلم شيئاً ، لكنه فى الحقيقة قد اكتسب أمراً هامًا وهو موهبة البقاء صامتاً أمام العالم كخاتمة للحذر الذى يحسه حيال الكلمات ، فالعالم الذى نطرح عليه السؤال الذى يتضمنه اسم وات (ماذا) والذى يبلغ أوجه فى شخصية السيدة « نوت » (عقدة) لتأتى الإجابة بما يماثل النفى نوت أى لا شىء .

نتيجة لذلك نرى حديثه يتلاشى ويصبح تلاعباً لا يحتوى الواقع ، ونجد التنسيق الموسيقى للمقاطع يحل محل الاهتمامات المنطقية ويركز نشاطه العقلى نحو ذاته ويخرج من الكتاب ويهرب من الحكاية وينتهى وجوده الظاهرى إلى الإخفاق .

هذه الرواية مع رواية مورفى هما الروايتان الوحيدتان اللتان كتبهما بيكيت بإنجليزية مباشرة ، وتلاعب فيهما بكل القدرات اللغوية الممكنة ، وربما كان هذا هو السبب لتقدير جيمس جويس لعمله ، فهو تلاعب باللغة وليس تساؤلاً حولها ، لكن بانتقال بيكيت للكتابة بالفرنسية يتحول مركز الاهتمام البلاغى ، إذ ينتقل إلى الاهتمام بأشكال البناء الروائى بدلاً من استخدام الأساليب اللغوية ، فابتداءً من الثلاثية تتركز القضية الأساسية فى النص على إمكانية بنائه لا على مظهره الجمالى .

فى سنة ١٩٥٠ نشر مجموعة من النصوص - ثلاثة عشر نصًا - بعنوان « نصوص بلا طائل » تشكل مفترقاً أساسيًا فى مؤلفاته ، فهى تلخص حصيلة الثلاثية وتنبئ بما سيأتى بعدها ، وتتضح مدى أهميتها فى نشرها عقب القصص الثلاث التى نقدمها فى هذا الكتاب والتى تشكل المخطط المبدئى للوجود الذى عولج فى الثلاثية ، وتمثل مرحلة تأمل وإيضاح للكارثة الروائية التى ستأتى خارج حدود المكان والزمان والشخص والرواية فى روايته « كيف يكون الأمر ؟ » .

حينما أصدر ثلاثيته : « مولوى » و « مالون يموت » و « اللا مسمى » ، اعتبر النقاد « مولوى » أشهر رواياته وأهم رواية تصدر منذ عوليس لجويس ، بل حتى من يذمون أعماله لا يستطيعون إنكار أن هذا العمل الغريب والمؤثر متعدد المستويات ، أحد الروائع الأدبية .

فى الجزء الأول من الرواية ، يقول مولوى - وهو مريض عجوز - ذكرياته عن الأوقات التى كان فيها قادراً على الحركة ، يستطيع أن يسير على سطح الأرض فى حالة من البؤس والشقاء الدائم المصحوب بتفاؤل رواقى ، وتصل هنا قدرة بيكيت ذروتها فى انتزاع المرح القاسى من الوضع الإنسانى .

على نقيض ذلك نجد القسم الثانى من الرواية « تقرير موران » وموران هذا مخبر خاص كتب تقريره بعد أن أرسل للبحث عن مولوى ، وهو شخصية من نمط شائع أكثر من مولوى ، وخلال بحثه وغوصه فى العجز واليأس ، يصبح مع مضى الوقت أكثر شبها بالشخص الذى يبحث عنه .

أما الجزء الثانى من الثلاثية « مالون يموت » فهو عبارة عن مونولوج طويل ، ولبيكيت طرق بارعة فى معالجة واستخدام المونولوج ، يقص علينا البطل من خلاله ما يدّعى أنه الحقيقة وهو مسمر على سريره فى عجز تام دون أن ينتهى به الأمر إلى الحياة أو الموت .

وفى الجزء الأخير من الثلاثية «اللا مسمى» تكتمل الحلقة ، إذ يعود البحث حيث تركه مالون وبطريقة روائية للإجابة على الأسئلة أين ومتى ومن ؟ يبحث المتكلم عن تأكيد شخصيته متحدثاً عن نفسه دون أن يتوصل إلى إدراك ذاته بشكل يرضيه ، وهنا يبلغ البحث عن الذات وضياعها الذروة، ويتقلص ذلك اللا مسمى الذى يتحدث إلينا فى هذه

القصة إلى أبعد حد ، حتى بدا مستحيلاً أن نرى له جسداً أو موقفاً فى مكان أو زمان يمكن تحديد سماتهما .

* * *

فى سنة ١٩٦١ صدرت أكثر رواياته تجريدية « كيف يكون الأمر ؟ » إذ تبدو الكتابة فيها وكأنها مجرد القدرة على رصف الكلمات فى جمل دون حاجة للاهتمام بأن تعطى معنى ، ولا نجد بداية أو نهاية حقيقية للنص ، ويبعث فينا ذلك التجريد الحيرة ، فنحن لم نتعود القراءة لمجرد اكتشاف طبيعة بناء العمل ، بل اعتدنا أن يكون للقصة معنى وأن نستطيع تلخيص مضمونها واستخلاص نتيجة ما ، لكننا هنا لا نجد شيئاً سوى الكلمات وسر لفظها ، كلمات تجعلنا نرى معها عالماً فى رحلات عجيبة .

تحدث القصة فى درجة الصفر من الانفعال ، تتحدث عن الجلادين والضحايا ، لكن ليس حديثاً عن الألم ، إذ تعرض المواقف دون إمكانية لتدخل الحكم الأخلاقى والعاطفى ، بمعنى أن هدفها الوحيد هو أن تبحث فى ماهية الأشياء لدى تفحصها عن قرب دون الالتزام باتخاذ موقف حيال ما يقال ، ويمنعنا التناوب المنتظم بين أدوار الجلاد والضحية فى تحديد من الظالم ومن المظلوم ، كما لا يمكننا اعتماد أى قيمة يمكن الاستناد إليها للحكم على ما وقع .

وفى القصص القصيرة الطويلة التى كتبها بعد روايته هذه وصولاً إلى آخر رواياته « أسىء رؤيتها أسىء فهمها » سنة ١٩٨٧ ، كانت اللغة لديه مزيجًا من الألفة والغرابة ، يعزف فيها على الألحان نفسها ، الشيخوخة ، المتكلم والآخر والذات ، اللغة ، وقد أثار موضوع الشيخوخة الذى يركز عليه فى رواياته دائماً النقاد ، فقالوا ربما لأن الشيخوخة تعبر عن انفصال الذكرى عن الرغبة ، الحاضر عن الماضى ، النفس عن الآخرين ، الهُنا عن الهُناك .

إن التجديد الذى جاء به بيكيت نابع مما يريد أن يعبر عنه وليس فى أسلوب السرد الروائى ، فتيار الشعور ، هذا التكنيك الذى يقوم أساساً على المونولوج الداخلى ، وتختفى فيه قواعد الإنشاء الروائى التقليدى ، من رسم لشخصيات واضحة المعالم وتصوير أحداث متلاحقة ومتسلسلة من الناحية الزمنية ، ليس جديداً على الفن الروائى ، فقد سار بيكيت على خطا فرجينيا وولف وجيمس جويس الذى ارتقى به إلى أرفع آيات الجودة والإتقان . ثم إن الغموض عنده غموض مشروع ، فهو يريد أن يعبر عما لا يمكن التعبير عنه ، يريد أن يعبر عن العدم القابع وراء الوجود ، مستخدماً بذلك ألفاظاً من اللغة هو يدرك أنها ليست موصلا رديئاً للمعانى فحسب ، بل إنها لا توصل شيئاً على الإطلاق ، بمعنى أننا نرى أمامنا جهداً يتجه نحو الكلام وتخونه اللغة دائماً ، ليس لأنها غير قادرة على التعبير بل لأنها لا تستطيع أن تبرز إلى الوجود شيئاً لا يمكن أن يوجد إلا فى كلمات جديدة فريدة غير مألوفة ، وفى صياغة نحوية تختلف عن النحو المعتاد .

ليس ما يريده بيكيت هو هدم الأشكال الأدبية العتيقة ، وبطريقة تقليدية تماماً ، بل همه أن يوضح أن الأدب ذاته يمثل استحالة واخفاقاً مستمرًا ، فهو لا يقوم إلا فى غياب المعنى ، بينما الأدباء ينزلقون به نحو التأكيد .

وهنا يبرز الاختلاف بينه وبين جويس ، فعند جويس ثقة غير محدودة بقدرة الكلام ، بينما عند بيكيت أن اللغة لا تتيح لنا الأخذ بناصية العالم وأن كل شىء ينتهى بالخيبة .

وقد قال بيكيت فى مقال له : « يتمثل اختلافى عن جويس فى أنه كان يحسن معالجة مادته وبشكل رائع ، وقد يكون الأعظم فى هذا المجال ، كان يعطى الكلمات أقصى ما تحتمل ، أما أنا فلا أجدنى سيداً لمادتى ، أعمل فى العجز وفى الجهل » .

وهكذا ، ففى أعماله تشكل قضية الأسلوب والمفهوم ، محوراً للدراسات عند النقاد ، فشخصياته لا تجد موضوعاً تتحدث عنه إلا ذواتها الخاصة ، وسرعان ما يصطدمون بذلك البعد المحتمل بين ما يريدون قوله ، وهو ما يفترض التعبير الملائم عنه لغة جديدة وخاصة ، وبين ما يقولونه فى الواقع والذى لا يمكن أن يرضى تماماً رغبتهم فى التعبير ، وإذ ذاك يصبح كلامهم غير مفهوم وغير قادر على ضمان التواصل .

وإرضاءً لهذه الرغبة ، ينبغى خلق كلمات ذات مفهوم ذاتى ، بشكل يجعل مغزاها مختلفاً تماماً عما تعنيه أثناء استعمالها العادى ، وبذلك تجد اللغة مبررها الحقيقى ، لكنها فى الوقت ذاته تفقد مهمتها فى التواصل ، ويمكن للتواصل أن يظل قائماً طالما رضى المتكلم بالمفاهيم المعترف بها عادة ، لكن عمله آنذاك سيشوه وتختفى بذلك ركيزة اللغة .

قد يحدث أن تتعرض الشخصيات فى قصصه إلى بعض المواقف الغريبة ، كما فى قصة المهدئ ، أحد قصص هذه المجموعة ، فبطلها يقول : « لا أعرف متى كان موتى » ليسارع فى وضع نفسه « وحيداً فى سريره الجليدى » وهكذا أبرز الموت فى البداية باعتباره حدثاً قد مضى ، وتبقى إمكانية أن يصغى الإنسان إلى عملية تعفنه ، وهو ما يرعب المتكلم ، فبعد أن تقذف الولادة بالإنسان إلى الحياة ، يبقى الإمكان الوحيد أن ننتظر النهاية عبر الموت عاجلاً أو آجلاً ، لكن هذا الموت لا يأتى فى الواقع أبداً ، إذ أن الوجود لا ينتهى ، بل يظل غير مكتمل باستمرار ، لا يتحول إلى عدم مطلق ولا يتسامى إلى وجود كامل .

فى هذه القصص الثلاث ، رجال عجائز يُطردون أو يغيِّرون الأماكن البائسة المتواضعة التى يعيشون فيها ، يتحركون بحثاً عن مأوى جديد ، وهم غير متأكدين من شيء ، ويشركون القارئ معهم فى شكوكهم التى تشمل الذاكرة وعملية السرد نفسها .

البطل فى القصص الثلاث ، شخصية واحدة ، راوٍ متكلم ، دائماً فى حركة ، يصارع فى سبيل الأمور الدنيوية البسيطة : المسكن ، الطعام ، التسلية ، ولا يصارع من أجل تأدية واجب معين ، ويظل حيًّا لأنه ببساطة حى ، وبالإضافة إلى هذا الشخص المتكلم ونزواته وعدم قدرته على تذكر الحقائق ، يواجهنا شكه المستمر فى الأسباب الداعية لرواية حكايته .

تبدأ قصة الطريد بالبطل يطير فى الهواء مطروداً من منزل له سلالم ، أثناء سقوطه من أعلى السلم إلى أسفله يقدم لنا تفسيراً للموقف كله قبل أن يستقر فى المصرف قرب الرصيف .

منذ ذلك الوقت تبدأ عملية اندحاره الإنسانى ، ومن هنا يفترض أن كل هذه القصص الثلاث تتناول الرجل نفسه ، حتى القصة الأخيرة النهاية ، حين يغرق فى البحر فى قارب قديم ، مربوط بسلسلة شدها من وسطه إلى القارب ، ويبدو أنه هو الذى ثقب القارب ليضع نهاية لحياته .

معظم الأحداث أقل من العادية ، فإن هدف بيكيت أن يجعل من المواجهات العادية جدًّا ، خارجة عن المألوف ، جزئيًّا بالضغط على سذاجة الشخصية التى تبدو لها التفاهات اندهاشات دائمة ، وجزئيًّا بإشارة هشة تجعل من كل تفصيل صغير يبدأ كلحظة تنوير ، وهكذا فطبيعة النص تجعله لا يعتمد على عقدة أو وجهة نظر ، ما يحدث فى القصة الأولى هو يوم يقضيه بطلها فى التجول ، وليلة يمضيها فى اصطبل ، وبرغبة لا تقاوم يقودنا من جملة إلى جملة ، لا تمنعنا من الإحساس بأن لا شىء يحدث .

وبينما كان ما يجرى فى القصة الثانية ، والتى خصصت للرجل نفسه وقد أدخل المستشفى ، سرد للتخيلات والمقابلات القريبة من الهلوسة التى تجتاحه مع لحظات الإغماء التى تنتابه .

أما القصة الثالثة فتروى قصة طرده من هذا المستشفى أو المؤسسة الخيرية ، ليتصاعد بنا فى روايته لنصل إلى ثقب القارب والموت .

* * *

القصص الثلاث تصور انحدار رجل جوال من الطبقة المتوسطة إلى حيل التسول فى رحلة يقطعها دون دهشة أو حقد أو حتى نظرة إلى الخلف .

أيكون بيكيت قد أراد التعبير فى قصصه الثلاث عن الميلاد والحياة والموت ؟ ذلك جائز أيضاً .

إن نثر بيكيت الخاص ، ووصفه المرح ، ومعالجته الشعرية لمشكلات الإنسان المعاصرة مثل الوحدة والخوف واليأس ، تجعله مقبولاً من كل الأجيال ، فهو من أكثر الكتاب التصاقاً بطبيعة العصر الذى نعيشه .

أحمد عمر شاهين

الطـريــد

لم تكن هنـاك درجـات كثيـرة ، عددتهـم آلاف المـرات ، هابطـاً وصاعداً ، لكن الرقم ضاع من ذهنى ، لم أعرف أبداً إذا جاز أن تعد واحداً وقدمك على بسطة السلم ، واثنين وقدمك الأخرى على الدرجة الأولى ، وهكذا ، أو لا ينبغي عد البسطة ، قابلتنى الحيرة نفسها أعلى الدرج ، فى الاتجاه المضاد ، أقصد فى النزول من أعلى إلى أسفل ، كان الشيء نفسه ، الكلمة غير مناسبة . لم أعرف من أين أبدأ أو انتهى ، تلك حقيقة المشكلة ، فى النهاية وصلت إلى ثلاثة أرقام مختلفة تماماً ، دون أن أعرف أيها الصحيح ، وحينما أقول إن الرقم ضاع من ذهنى ، أعنى أنه لم يبق رقم من الثلاثة فى الذاكرة ، حقيقة لو كان علىّ أن أبحث فى ذهنى ، حيث يوجد بالتأكيد أحد هذه الأرقام ، لكنت وجدته ، ووجدته وحده دون أن أستطيع الاستدلال منه على الرقمين الآخرين ، وحتى لو تذكرت رقمين فلن أعرف الثالث ، لا ، يجب تذكر الثلاثة معاً ، فأنا أعرفهم جميعاً ، الذكريات قاتلة ، لذا عليك ألا تفكر فى أشياء معينة ، عزيزة عليك ، أو عليك أن تفكر بها نوعاً ما ، لأنك إن لم تفعل فهناك خطر أن تطفو على سطح تفكيرك رويداً رويداً ، أعنى يجب أن تفكر فيها لفترة معقولة ، عدة مرات كل يوم ، حتى تغرق فى الطين إلى الأبد ، ذلك هو النظام .

فى النهاية ليس المهم هو عدد الدرجات ، المهم والذى يجب أن أتذكره أنه لم تكن هناك درجات كثيرة ، وذلك ما تذكرته ، وحتى بالنسبة لطفل لم تكن كثيرة بالمقارنة بدرجات أخرى أعرفها ، فهو يراها كل يوم ،

يصعدها ويهبطها ، ويلعب عليها البيلة ، وألعاباً أخرى نسى أسماءها الحقيقية ، فكيف تكون بالنسبة لى أنا الذى كبرت عليها ؟ ولذا لم تكن السقطة خطيرة ، وسمعت الباب يصفق أثناء سقوطى ، ولقد أراحنى ذلك قليلاً فخفف من سقطتى ، لأن معنى ذلك أنهم لن يتبعونى إلى الشارع ، بعصا ، ليضربونى فى مشهد عام أمام المارة ، فلو كان ذلك عزمهم لما أقفلوا الباب ولتركوه مفتوحاً ، وبذلك يتمكن الأشخاص المتجمعون فى الردهة من الاستمتاع بمطاردتى وحضى على الفضيلة ، وهكذا للمرة الأولى اكتفوا بإلقائى فى الخارج لا أكثر ، ولذا ملكت الوقت لأختم بهذه الفقرة التوضيحية قبل أن أستريح فى مصرف على جانب الطريق .

فى مثل هذه الظروف لا يضطرنى شىء للنهوض بسرعة ، أرحت كوعى على الرصيف ، مضحكة الأشياء التى تتذكرها ، مسنداً أذنى على راحة يدى بدأت أنظر فى وضعى ، دهشا لشدة ألفته ، لكن الصوت ، صفقة الباب الثانية ، لم تخطئه أذنى رغم خفوته ، أيقظنى من أحلام اليقظة ، التى اتخذت بالفعل شكل منظر طبعى كامل ، مزين بشجر الزعرور والورود البرية ، كما فى الحلم ، جعلنى أتطلع إلى أعلى حذراً ، يداى مبسوطتان على الرصيف وساقاى استجمعتا قواها للهرب ، لكنها لم تكن سوى قبعتى ، ألقوها ورائى ، تطير تجاهى فى الهواء ، تدور وهى هابطة ، أمسكتها ولبستها ، كانوا على صواب تماماً ، حسب تعاليم دينهم ، كان بإمكانهم الاحتفاظ بالقبعة ، لكنها ليست ملكهم ، إنها ملكى ، لذا أعادوها ، لكن تحطم الانسجام الذى كنت فيه .

كيف أصف هذه القبعة ؟ ولماذا ؟ حين بلغ رأسى مداه ، لن أقول حدوده ، بل أقصى حجم له ، قال والدى : تعال يا ولدى سنشترى قبعتك ، وكأنها موجودة منذ زمن موغل فى القدم فى مكان أزلى ، اتجه رأساً إلى القبعة ، لم يأخذ رأيي ولا حتى رأى البائع ، وغالباً ما تساءلت إذا كان هدفه هو إهانتى ، وأنه كان يغار منى حيث كنت صغيراً وأنيقاً ، شابًا

مملوءًا بالحيوية على الأقل بينما هو عجوز مترهل الجسم ، منذ ذلك اليوم منعني من الخروج عارى الرأس يرفرف شعرى الجميل فى الهواء ، كنت أحياناً أخلعها فى شارع معزول وأمسكها بيدى مرتعشاً ، كان يطلب منى أن أنفضها بالفرشاة صباح مساء ، الأولاد ، والذين كنت مضطرًّا للاختلاط بهم بين حين وآخر ، هزأوا منى ، لكنى قلت فى نفسى ليست القبعة هى التى تضحكهم فى الحقيقة ، بل التناقض بين جدتها وباقى الثياب ، إنهم يفتقدون اللياقة ، كنت أعجب دائماً من نقص اللياقة عند أقرانى ، أنا الذى تتلوى روحى ألماً من الصباح إلى المساء جادة فى طلبها ، لكنهم ببساطة من تلك الكائنات التى تجعل من كبر أنف الأحدب لعبة . حينما مات أبى كان بإمكانى التخلص من هذه القبعة ، فلم يعد هناك من يمنعنى ، لكنى لست أنا الذى يفعل ذلك ، لكن كيف أصفها ؟ ربما فى وقت آخر ، فى وقت آخر .

نهضت وانطلقت أنسى كم بلغ بى العمر ، وفى كل ما حدث لى أخيراً لا أجد ما يستحق أن يذكر فلا هو المهد أو اللحد ، وإن كان يشبه أمهاداً وألحاداً أخرى ، كل ما فى الأمر أنى ضائع ، ولا أعتقد أنى أبالغ فى أولى خطوات الحياة ، فما أومن به هو ما يسمى بتملك المرء الكامل لقواه وملكاته ، ومن هذه الناحية فأنا على ما يرام ، عبرت الشارع ورجعت إلى المنزل الذى لفظنى توًّا ، أنا الذى لا يرجع أبداً حين أغادر ، كم كان جميلاً وزهور الجيرانيوم فى نوافذه ، فكرت لسنوات طويلة فى الجيرانيوم ، فهم زبائن الفن ، ولقد استطعت فى النهاية أن أفعل بهم ما أحب .

كنت دائماً شديد الإعجاب بباب هذا المنزل ، يقف شامخاً فى نهاية الدرجات الصغيرة الصاعدة ، كيف أصفه ؟ أخضر ضخم ، يغلف فى الصيف بنوع من الكسوة المخططة بالأزرق والأخضر ، فيها فراغ من أجل المدقة الحديدية التى تصدر صوتاً كالرعد ، وشق طولى من أجل الخطابات ، يحفظه من الغبار والذباب والعصافير الصغيرة ، ثنية

« بسوستة » نحاسية ، يكفى هذا الوصف ، كان الباب قائماً بين عمودين من اللون نفسه ، الجرس على العمود الأيمن ، ولم يكن ذوق الستائر استثنائيًّا ، حتى الدخان المتصاعد من فوهات المداخن بدا وهو ينتشر ويختفى فى الهواء أكثر زرقة وكآبة من الجيرة المحيطة ، تطلعت إلى الطابق الثالث والأخير ، ورأيت نافذة غرفتي مفتوحة بشكل فاضح ، وتنظيف دقيق قائم على قدم وساق ، بعد ساعات قليلة سيغلقون النافذة ، ويسدلون الستائر ، ويرشون المكان كله بالمطهرات ، فأنا أعرفهم ، كنت سأسعد بالموت فى ذلك المنزل ، وكرؤية طافت بذهنى ، رأيت الباب يفتح وأقدامى تخطو خارجه .

لم أكن خائفاً أن أنظر ، لأنى أعرف أنهم لا يتلصصون علىّ من وراء الستائر ، كانوا سيفعلون لو رغبوا ، لكنى أعرفهم ، فهم جميعاً قد عادوا إلى مأمنهم واستأنفوا احتلال مواقعهم ، ثم إنى لم أسبب لهم أى ضرر .

لم أعرف المدينة جيداً ، مرتع مولدى وخطواتى الأولى ، فى هذا العالم ، ثم من بين كل الآخرين الكثيرين ، ظننت أن كل أثر لى قد ضاع ، لكنى كنت مخطئاً ، خرجت قليلاً ! بين حين وآخر كنت أذهب إلى النافذة ، أزيح الستائر قليلاً ، وأنظر إلى الخارج ، لكن بعد ذلك أسرع إلى أعماق الغرفة حيث السرير .

شعرت بالتوتر بسبب هذا الجو الذى يحيطنى ، ضائع أمام اضطراب المناظر الطبيعية المتعددة ، لكنى ما زلت أعرف كيف أتصرف حينما يكون الأمر ضروريًّا ، رفعت عينى إلى السماء أولاً حيث يأتينا العون ، وحيث لا طرق هناك فيمكنك أن تتجول بحرية ، كما فى الصحراء ، لا شىء يحد رؤيتك أينما أدرت بصرك إلا حدود الرؤية نفسها ، التى تغدو مملة فى النهاية ، حينما كنت أصغر سنًّا ، ظننت أن الحياة ستكون مريحة

وسط الحقول ، وذهبت إلى مراعى ليونبرج ، مضيت إلى الأرض المزروعة بالعشب ، والسهل مسيطر على تفكيرى ، كانت هناك مراع أقل بعداً فى أماكن أكثر قرباً ، ولكن صوتاً ظل يهتف بى أن سهل ليونبرج هو ما تحتاجه ، لا بد أن للاسم دخل فى ذلك ، فقد اتضح أن هذا المرعى غير مرضٍ بدرجة كبيرة . رجعت إلى البيت محبطاً وفى الوقت نفسه مرتاحاً ، لا أعرف السبب ، ففى الأيام الخوالى كنت غالباً محبطاً ، لكن دون إحساس بالراحة أبدا ، سواء آنذاك أو فى فترة لاحقة .

انطلقت ، يالهذا الخطو ، تصلب فى الأطراف السفلية كما لو أن الطبيعة استكثرت علىّ الركب ، تأرجح غريب للقدمين نحو اليمين واليسار عن خط السير المستقيم ، بينما الجذع على النقيض ، وكأن الأمر تعويض آلى ، كان متراخياً كحقيبة قماش قديمة ، يستجيب بطريقة عجيبة لهزات الحوض الفجائية ، حاولت إصلاح هذه العيوب قدر طاقتى ، أصلب طولى ، أثنى ركبتى ، أسير قدماً أمام أخرى ، بعد خمس أو ست خطوات ينتهى كل شىء إلى النتيجة نفسها ، أعنى توازن أقل ، يتبعه السقوط . يجب على الرجل أن يمشى دون أن يلقى بالاً لما يفعل ، كما يتنفّس ، وحينما أسير دون الانتباه لما أفعل فإنى أسير بالطريقة التى وصفتها ، وحينما ألقى بالاً فإنى أسقط بعد خطوات قليلة معقولة ، قررت حينئذ أن أكون نفسى .

سبب هذه المشية يعود فى رأيى ، جزئيًّا على الأقل ، إلى انحناء معين عجزت كليًّا أن أحرر نفسى منه ، والذى ترك أثره ، كما هو متوقع على سنوات العمر المهمة ، تلك السنوات التى تحدد الشخصية ، بقدر ما يمتد وعيى ، من الترجح فى أول الخطوات خلف كرسى إلى المرحلة الثالثة التى أنهيت فيها دراستى ، كنت آنذاك قد تملكتنى العادة المؤسفة التبول أو التبرز فى سروالى ، أفعل ذلك بشكل منتظم فى الصباح المبكر حوالى العاشرة أو العاشرة والنصف ، وأصر على السير لنهاية اليوم

كما لو أن شيئاً لم يحدث ، فكرت أن أغير البنطلون ، أو آتَمِنُ أمى على السر ، ويعلم الله أنها لا تطلب شيئاً أكثر من مساعدتى ، كانت غير محتملة ، لا أعرف السبب ، وأظل حتى موعد الذهاب إلى السرير ، أجر نفسى والحرقان واللزوجة بين أفخاذى الصغيرة ، أو ملتصقاً بمؤخرتى نتيجة لعدم قدرتى على التحكم . هذه المشية الحذرة بساقين متصلبتين منفرجتين ، والترنح المحبط للجذع قصدت بها أن أبعد الناس عن الرائحة ، وأجعلهم يعتقدون أنى مرح وروحى عالية وغير مهتم بالعالم ، فيهتمون بشروحى التى أدلى بها بلباقة بخصوص جزئى الأسفل والذى أرجعه إلى روماتيزم وراثى ، وهكذا أكل شبابى المتحمس ، بقدر ما ملكت منه ، نفسه فى هذا المجهود ، وأصبحت متعكر المزاج وغير موضع للثقة ، قبل الأوان ، مفضلاً الاستلقاء مختفياً عن العيون ، حلول صبيانية بائسة ، لا تفسر شيئاً ، لا حاجة للحذر إذن ، ولنركن إلى رضا القلب ، فالضباب لن ينقشع .

كان الطقس جميلاً ، تقدمت صعداً فى الشارع ، محافظاً قدر إمكانى على قربى من الرصيف ، فأكثر الأرصفة اتساعاً لا يسعنى متى بدأت السير ، فأبتعد عنها لأنى أكره مضايقة الغرباء من المارة .

أوقفنى شرطى وقال : الشارع للعربات والرصيف للمشاة ، قالها كأنها جملة من العهد القديم ، وهكذا عدت إلى الرصيف شبه معتذر ، وبالرغم من الزحام الذى لا يوصف ، فقد سرت عشرين خطوة بشكل معقول قبل أن ألقى بنفسى على الأرض تجنباً لسحق طفل ، كان يلبس عدة حصان صغيرة ، بأجراس صغيرة على ما أذكر ، ربما كان يقلد فرساً صغيراً (سيسى) ولم لا ؟ كنت سأدوسه بسعادة ، فأنا أنفر من الأطفال ، وربما أديت له خدمة بذلك ، لكنى كنت أخاف العواقب ، فكل فرد أصبح أباً ، وذلك يجنبك الأمل فى النجاة ، يجب أن تكون هناك فى الشوارع المزدحمة ، ممرات خاصة لهذه المخلوقات الصغيرة الشقية ،

لعرباتهم الصغيرة ، أطواقهم ، حلواهم ، دراجاتهم الخاصة ، زلاجاتهم ، أجدادهم وجداتهم ، مربياتهم ، بالوناتهم ، وكراتهم ، وفي كلمة كل الأشياء المزعجة التي تشكل سعادتهم الضئيلة .

وقعت إذن وأوقعت معي سيدة عجوزاً مغطاة بالترتر والدانتلا ، وزنها يزيد على المائة كيلوجرام ، جلبت صرخاتها جمهوراً حولنا . كانت آمالي كبيرة في أن يكون عظم فخذها قد كسر ، فالعجائز تكسر عظامهن بسهولة ، ولكن ليس بالدرجة المرجوة .

انتهزت فرصة الهياج الأولى هارباً متمتماً ببعض الشتائم كما لو كنت الضحية ، وقد كنت كذلك ، لكني لا يمكنني البرهنة على ذلك ، فهم لا يوجهون أبداً التهم أو الإدانة للأطفال مهما فعلوا ، إنهم متحيزون مقدماً ، وما كنت أتورع عن إدانتهم وعقابهم بسعادة تامة ، ولا أعني أن أقوم بذلك بنفسي ، لا ، فأنا لست رجلاً قاسياً ، لكني سأشجع الآخرين وأقدم لهم الشراب حين يتم العمل ؛ ولكن ما إن بدأت أتأرجح ثانية في مشيتي حتى أوقفني شرطي آخر ، يشبه من كل النواحي الشرطي السابق ، حتى إني تساءلت فيما إذا كان هو نفسه ، أوضح لي أن الرصيف ليس لي وحدي ، قالها كما لو كان يبدو عليّ بوضوح تام أني لا أفهم تلك المقولة . قلت ، دون التفكير لحظة واحدة بأقوال هيرقليطس : هل ترغب أن أسير في المصرف ؟ قال : سر أينما تريد ولكن اترك مساحة لغيرك وإذا لم تستطع السير كما يسير الآخرون فالأفضل أن تمكث في البيت ، كان ذلك هو شعوري بالضبط ، وقد كانت ترضية غير بسيطة أن يعزو لي بيتاً .

في تلك اللحظة ، مرت جنازة ، كما يحدث أحياناً . كان هناك اختلاط أعداد كبيرة من القبعات ، وحركة أصابع لا حصر لها في الوقت نفسه ، وبصفة شخصية ، لو اقتصر الأمر على رسم علامة الصليب ، لبذلت

جهدى لأتقنها ، الأنف ، السرة ، حلمة الثدى اليسرى ، ثم اليمنى . لكن الطريقة التى يؤدونها بها ، بفوضى وخشونة ، الركبتان تحت الذقن واليدان كيفما اتفق ، دون كرامة ، كما لو أن المرء اضطهد لدرجة كبيرة ، وكلما ازداد الهياج توقف الركب ، وغمغموا ، بينما وقف الشرطى متصلباً فى وضع انتباه ، أغمض عينيه وأدى التحية ، ومن خلال نوافذ العربات لمحت المشيعين يتناقشون بحيوية ، لاشك أنهم يتحدثون عن بعض مواقف المرحوم ، أخيهم أو أختهم فى الدين ، بدا لى أنى سمعت أن باب عربة الموتى يختلف فى الحالتين ، إذا كان المتوفى رجلاً أو امرأة ، لكنى لم أستطع أن أكتشف أين يقع هذا الاختلاف ، كانت الخيل « تضرط وتشخ » كما لو أنها ذاهبة إلى السوق ، ولم أرى أحداً راكعاً .

ولكن رحلتنا الأخيرة ستتم قريباً ، فمن العبث أن تسرع خطوك ، سرعان ما تتخطاك العربة الأخيرة التى تحمل الخدم ، انتهت فترة الراحة التى أتاحتها الجنازة ، وتفرق المارة كلّ فى طريقه ، وعليك أن تنتبه لنفسك ، وهكذا توقفت للمرة الثالثة ، بحريتى التامة ، ودلفت إلى عربة ، إحدى تلك العربات التى رأيتها تمر ، محشوة بالناس يتناقشون بحماس ، ولا بد أنها تركت فى نفسى أثراً قويًّا . إنها صندوق أسود كبير ، تتقلقل وتهتز فوق « زمبلكاتها » النوافذ صغيرة ، تتكور فى ركن منها ، رائحته متعفنة ، شعرت أن قبعتى تلامس السقف ، بعد لحظة ، انثنيت للأمام وأقفلت النوافذ ، ثم جلست وظهرى للحصان ، كنت أغفو حينما نبهنى صوت السائق ، كان قد فتح الباب سائلاً إلى أين ؟ بلا شك أنه تصرف كذلك بعدما فشل أن يسمعنى صوته عبر النافذة ، كل ما رأيته منه شاربه ، نزل عن مقعده ليسألنى ذلك السؤال ، وأنا الذى ظننت أنى أصبحت بعيداً ، فكرت ، باحثاً فى ذاكرتى عن اسم شارع أو مكان أثرى ، قلت : هل عربتك للبيع ؟ وأضفت : بدون الحصان ، فماذا

يمكنني أن أفعل بالحصان ، ولكن ماذا يمكنني أن أفعل بالعربة ؟ هل يمكنني أن أتمدد فيها بطولى ؟ من سيحضر لى الطعام ؟ قلت : إلى حديقة الحيوان ، فمن النادر أن تكون هناك عاصمة بلا حديقة حيوان ، وأضفت : لا تسر بسرعة ، ضحك ، لا بد أن فكرة الذهاب إلى حديقة الحيوان بسرعة قد سرَّته ، هذا إذا لم يكن سبب ضحكه توقعه أن يكون بلا عربة ، أو ربما بسبب شخصى الذى كان وجوده فى العربة قد غير من معالمها لدرجة كبيرة ، حتى إن رؤيته لى برأسى الذى يطاول السقف وركبتاى اللتان ترتكزان على النافذة ، قد جعلته يتساءل إذا كانت هذه حقًّا عربته ، أو أنها عربة على الإطلاق ، أسرع ينظر إلى حصانه ، وعاد إليه يقينه ، ولكن هل يعرف أحد أبداً لماذا يضحك شخص ما ؟ وعلى أية حال فإن ضحكته كانت مقتضبة ، وذلك يوضح أنى لست المقصود ، أقفل الباب وصعد ثانية إلى مقعده ، ولم تمض لحظة حتى انطلق الحصان فى طريقه .

مازلت أملك قليلاً من المال فى هذا الوقت ، وهو حقًّا أمر يبدو مدهشاً ، وهو المبلغ القليل الذى تركه لى والدى كهبة بعد وفاته ، وبلا أية شروط، ومازلت أتساءل هل مازلت أحتفظ به أم سرق منى، إذن فأنا لم أكن أملك شيئاً ، ومع ذلك كانت حياتى تسير بالشكل الذى أريده على نحو ما ، العيب الأكبر لهذا الوضع ، والذى يمكن أن نحدده بالاستحالة المطلقة لاقتناء أى شىء ، هو أن يجبرك على استمرار الحركة ، فمن النادر مثلاً ، حين تكون مفلساً ، أن يحضر أحد إليك الطعام من حين لآخر وأنت تنام مسترخياً ، أنت مضطر إذن للخروج وتحريك نفسك ، يوماً فى الأسبوع على الأقل ، ومن الصعب أن يكون لك عنوان لبيت فى مثل هذه الظروف ، ذلك أمر لا مناص منه ، ولذلك علمت بعد فترة معينة ، أنهم يبحثون عنى فى مسألة تخصنى ، نسيت عن أى طريق علمت ذلك ، فأنا لم أكن أقرأ الجرائد ، ولا أذكر أنى تحدثت مع أحد خلال هذه السنوات ،

عدا ثلاث أو أربع مرات ، وفى موضوع الطعام ، على كل حال لا بد أنه وصلنى علم بالموضوع بشكل أو بآخر ، وإلا لم أكن لأذهب أبداً لرؤية المحامى ، مستر ندر ، غريب كيف يفشل الإنسان فى نسيان أسماء بعينها ، كما أنه لم يكن ليستقبلنى أبداً .

تحقق من شخصيتى ، واستغرق ذلك وقتاً ، أريته الحروف المختصرة على بطانة قبعتى ، لم تثبت شيئاً لكنها زادت من الاحتمالات ، قال : وقِّع ، كان يعبث بآلة تسطير أسطوانية يمكنك أن تصرع ثوراً بها ، قال : عدّها ، كانت تحضر هذا اللقاء امرأة شابة ، ربما موظفة ، كشاهدة بلا شك ، حشرت الرزمة فى جيبى ، قال : يجب ألا تفعل ذلك ، تراءى لى أنه كان يجب أن يطلب منى عدّها قبل أن أوقّع ، فذلك أدق فى المعاملة ، قال : أين يمكن أن أتصل بك إذا لزم الأمر ؟ حينما وصلت لأسفل السلم خطر لى خاطر ، عدت بسرعة لأسأله من أين جاءت هذه النقود ؟ وأضفت أن من حقى أن أعرف ؛ قال لى اسم امرأة نسيته ، ربما كانت قد هدهدتنى على ركبتيها وأنا ما زلت بعد فى الأقمطة ، فى مرحلة الملاطفة والتدليل ، أحياناً ذلك يكفى ، أكرر فى الأقمطة ، لأنه بعد ذلك يكون الوقت قد فات للتدليل والملاطفة ، فالفضل لهذه النقود فى أننى ما زلت أملك بعض المال ، قليل جدًّا ، وهو مبلغ تافه إذا قُسم على أيامى القادمة ، إلا إذا كان تقديرى متشائم جدًّا .

قرعت على الحاجز القريب من قبعتى ، بالضبط عند ظهر السائق ، لو كانت حساباتى دقيقة ، هبت من الستائر سحابة من الغبار ، أخرجت حجراً من جيبى وخبطت به حتى توقفت العربة . لاحظت أن العربة توقفت مرة واحدة ، بخلاف كل العربات التى تبطئ قبل أن تقف ، انتظرت ، اهتزت العربة كلها ، لابد أن السائق يصغى على كرسيه العالى ، وكما لو أننى أرى الحصان بأم عينى ، دون أن يتعثر فى وقفاته القصيرة ، مطرقاً ، منتبهاً ، مرهف الأذنين ، نظرت من النافذة ، كنا قد

واصلنا السير ، خبطت على الحاجز ثانية ، حتى توقفت العربة مرة أخرى ، هبط السائق عن مقعده لاعناً ، أنزلت زجاج النافذة لأمنعه من فتح الباب ، قلت : سر بسرعة أكبر ، سر أسرع . كان وجهه محمرًّا أكثر من أى وقت مضى ، قرمزى بعبارة أخرى ، الغضب ، أو الريح المندفعة ، أخبرته أنى أستأجره لليوم كله ، أجاب أن عنده جنازة فى الساعة الثالثة ، أخبرته أنى غيرت رأيى ولم أعد أرغب فى الذهاب إلى حديقة الحيوان ، قلت : دعنا لا نذهب إلى حديقة الحيوان ، أجاب : إنه لا فرق عنده أنَّى ذهبنا بشرط ألا يكون المكان بعيداً بسبب الحصان ، حديث على منوال حديث البدائيين ، سألته إذا كان يعرف مكاناً لتناول الطعام ، وأضفت سنأكل معى ، أفضّل فى هذه الأماكن أن أكون مع زبون دائم معروف .

كان هناك طاولة كبيرة على جانبيها دكتين بحجم واحد ، على الطعام ، تحدث لى عن حياته وزوجته ، وحصانه ثم مرة ثانية عن حياته وتعاستها ، خاصة بسبب نوعية شخصيته ، سألنى إذا ما كنت أدرك معنى أن يكون المرء خارج البيت فى كل الأحوال الجوية ، أعرف أنه ما زال بعض السائقين الذين يقضون يومهم فى استرخاء واستمتاع بالدفء داخل عرباتهم فى الموقف ، فى انتظار مجىء زبون فى أواخر أيامه أو يستلقى فى السرير ، فعليه اتباع طرق أخرى بالضرورة ، شرحت له وضعى ، ما فقدته وما أسعى إليه ، بذلنا جهدنا ، كلانا ، فى أن نوضح ونفهم ، فهم أنى فقدت غرفتى وأبحث عن أخرى وفاته باقى الحديث ، دخل ذهنه فقط أنى أبحث عن غرفة مفروشة ، ولا شىء استطاع أن يزحزحه عن هذا الفهم ، أخرج من جيبه صحيفة مسائية لليوم السابق أو ربما الذى قبله ، وبدأ يتصفح الإعلانات ، وضع خطاً بقلم رصاص رفيع تحت خمسة أو ستة منها ، الأماكن التى يحوم حولها الغرباء أمثالى ، بلا شك أنه اختار الأماكن التى كان سيختارها لو كان مكانى ، أو ربما اختار الأماكن التى

تتركز فى المنطقة المحيطة بسبب حيوانه ، كنت سأربكه لو قلت إنه يمكننى الاستغناء عن الأثاث عدا السرير ، وإنه لا يهمنى أن تزال كل القطع الأخرى حتى الطاولة الصغيرة من الغرفة قبل أن أخطو بقدمى داخلها ، حوالى الساعة الثالثة ، نبهنا الحصان وانطلقنا ثانية ، اقترح السائق أن أصعد وأجلس على المقعد بجانبه ، لكنى كنت أحلم لبعض الوقت فى الاستلقاء داخل العربة ، فصعدت فى الخلف .

زرنا بشكل منتظم ، العناوين التى اختارها ، واحدًا بعد الآخر ، اقترب نهار الشتاء القصير من نهايته ، يخيل إلىّ أحياناً أنى لم أعرف سوى هذه الأيام ، خاصة تلك اللحظة الساحرة أكثر من غيرها ، حينما يمسح الليل آخر لحظات النهار ، العناوين التى خطّ تحتها ، أو بعبارة أصح وضع عليها علامة الصليب كما تفعل العامة ، أثبتت عدم جدواها واحدًا بعد الآخر ، وواحداً بعد الآخر شطب عليها بخط مائل ، وقدم لى الصحيفة بعد ذلك ، نصحنى بالاحتفاظ بها سليمة حتى أتأكد أنى لا أبحث ثانية حيث بحثت بلا طائل .

رغم النوافذ المغلقة ، وصلصلة العربة ، وضجة المرور ، فقد سمعته يغنى وحيداً عالياً على مقعده المرتفع ، لقد فضلنى على الجنازة ، هذه حقيقة ستدوم إلى الأبد ، كانت بعيدة عن الأرض حيث بطلها الصغير ، هذه هى الكلمات الوحيدة التى أذكرها من أغنيته ، فى كل توقف ، كان يهبط من مقعده ، ويساعدنى فى النزول عن مقعدى ، أدق جرس الباب الذى يشير إليه ، أو أختفى أحياناً داخل المنزل ، يتملكنى شعور غريب حين يضمنى بيت بعد فترة طويلة ، كان ينتظرنى على الرصيف ويساعدنى ثانية فى الصعود إلى العربة ، أتعبنى وأمرضنى هذا السائق ، كان يصعد بجهد على مقعده وننطلق ثانية ، فى لحظة ما حدث ما يلى : توقف ، انتفضت من سباتى وتهيأت للهبوط ، ولكنه لم يأت ليفتح الباب ويمد لى ذراعه ، وهكذا اضطررت أن أهبط بنفسى .

كان يضيء المصابيح ، أحب مصابيح الغاز ، بالرغم من أن لها شموعًا ، وإذا استثنيت النجوم ، فضوؤها هو أول الأنوار التى رأيتها ، سألته أيجب أن أشعل المصباح الآخر حيث إنه أشعل الأول بنفسه ، ناولنى علبة كبريت ، ملت فاتحاً مفصلات الزجاج الصغير المحدب ، أشعلت وأقفلت بسرعة ليتمكن الفتيل من الإضاءة بثبات وينير بلمعان فى بيته الصغير ، بعيداً عن الريح ، استمتعت بهذا فرحاً ، لم نر شيئاً على ضوء هذين المصباحين ، عدا ملامح غامضة لجسم الحصان ، لكن الآخرين كانوا يرون المصابيح عن بعد ، وهجان أصفران يبحران فى الهواء ببطء ، وحينما تستدير العربة يمكن رؤية عين حمراء أو صفراء حسب الوضع المعيَن الشكل المحدب واضح جدًّا كأنه زجاج ملون .

بعد أن انتهينا من العنوان الأخير بلا أمل ، اقترح السائق أن يوصلنى إلى فندق يعرفه حيث سأكون راضياً ، ذلك معقول ، سائق ، فندق ، كلام مقنع ، وبتوصية منه فلن أحتاج شيئاً ، قال : كل شيء تحتاجه يلبى بإشارة ، جرى هذا النقاش على الرصيف أمام البيت الذى خرجت منه لتوى ، أذكر ذلك ، بدت خاصرة الحصان ، فى ضوء المصباح ، مجوفة ومبتلة ، ويد السائق على مقبض الباب فى قفاز صوفى ، وسقف العربة فى مستوى عنقى ، اقترحت أن نتناول شراباً ، الحصان لم يأكل أو يشرب طوال اليوم ، ذكرت ذلك للسائق ، فأجاب بأن حصانه لن يتناول طعاماً حتى يعود إلى الإصطبل ، لأنه إذا تناول شيئاً مهما كان أثناء العمل ، سواء تفاحة أو قطعة سكر فسيصاب باضطراب فى المعدة ومغص يمكن أن يضرّه أو حتى يقتله ، وذلك هو السبب الذى يضطره أن يلجمه كى لا يقاسى من قلوب المارة الرحيمة إذا ابتعد عنه لسبب أو لآخر . بعد عدة كؤوس ، دعانى أن أمنحه وزوجته شرف قضاء الليلة فى بيتهم ، وهو ليس ببعيد . بدا لى وأنا أستجمع شتات ذهنى متذكراً هذه العواطف ، فى ميزة الهدوء الشهيرة ، إنه لم يفعل شيئاً طوال يومه سوى

تغيير اتجاه عربته وهو يقودها ، كانا يعيشان فوق إصطبل فى خلفية فناء ، موقع مثالى ، كان يمكننى أن أقنع به ، بعد أن قدمنى إلى زوجته التى كانت عجيزتها ممتلئة بشكل غير عادى ، تركنا ، كانت قلقة بدرجة واضحة ونحن وحدنا ، كان باستطاعتى فهمها ، وفى مثل هذه المناسبات لا أتمسك بالرسميات ، فلا مبرر أن يظل هذا الوضع معلقاً ، فلينته .

قلت : سأذهب لأنام فى الإصطبل ، اعترض السائق ، فأصررت ، لفت السائق انتباه زوجته إلى الدمل فى قمة رأسى ، وكنت قد خلعت قبعتى كنوع من الاحترام ، قالت : يجب أن يزيله ، وذكر السائق اسم طبيب يحمل له تقديراً كبيراً كان قد خلصه من ثألول فى مقعدته ، قالت زوجته : إذا أراد أن ينام فى الإصطبل فدعه ينام فى الإصطبل .

حمل السائق المصباح عن المائدة وسبقنى هابطاً الدرجات أو السلم الخشبى الذى يؤدى إلى الإصطبل تاركاً زوجته فى الظلام ، فرش بطانية خاصة بالحصان على القش فى ركن من الإصطبل ، وترك لى علبة كبريت فى حالة إذا ما احتجت أن أرى بوضوح فى الليل ، لا أذكر ماذا كان يفعل الحصان طوال الوقت ؛ لكننى وأنا متمدد فى الظلام سمعت الضجة التى يحدثها عندما يشرب ، صوت مميز ، وعدو الجرذان المفاجئ ، ومن فوق تأتينى الأصوات الخافتة للرجل وزوجته وهم ينتقدوننى .

رفعت علبة الكبريت بيدى ، علبة كبيرة من كبريت الأمان ، نهضت وأشعلت عود ثقاب ، لهبه الضعيف مكننى من تحديد موقع العربة ، تملكتنى رغبة بإشعال النار فى الإصطبل ، لكنى تخليت عنها ، تحسست طريقى إلى العربة ، فتحت بابها ، فانزلقت منه الجرذان ، وصعدت داخلها ، حينما استقر بى المقام لاحظت أن العربة لم تعد فى مستوى أفقى ، ذلك لا مفر منه والعريش مرتكز على الأرض ، هذا أفضل ،

فهو يتيح لى أن أستلقى تماماً على ظهرى ، وقدماى فى مستوى أعلى من رأسى على المقعد الآخر ، شعرت عدة مرات أثناء الليل أن الحصان ينظر لى عبر النافذة ، أحسست بتنفس منخريه ، ربما حار من وجودى فى العربة ، وهو غير ملجم الآن ، كنت بردانا وقد نسيت أن آخذ البطانية ، ولكنى لست بردانا لدرجة أن أذهب لإحضارها .

من نافذة العربة رأيت نافذة الإصطبل ، واضحة تماماً ، خرجت من العربة ، العتمة ليست تامة ، استطعت أن أميز المذود ، الحامل الخشبى ، اللجام المعلق ، وماذا أيضاً ، جرادل وفرش ، اتجهت نحو الباب لكنى لم أستطع فتحه ، لم يرفع الحصان عينيه عنى ، ألا تنام الخيل ! بدا لى أن السائق كان لا بد أن يربطه إلى المذود مثلاً ، وهكذا اضطررت إلى المغادرة عبر النافذة ، لم يكن ذلك سهلاً ، ولكن أى الأشياء سهل ؟ خرجت أولاً برأسى ، يداى مبسوطتان على أرض الفناء بينما ساقاى « تعافران » لتتخلصا من إطار النافذة ، أذكر خصل العشب التى انتزعتها فى محاولتى إخراج نفسى ، كان يجب أن أخلع « السترة » وألقيها من النافذة ، ولكن ذلك يعنى أنى سأفكر فيه ، بمجرد أن غادرت الفناء خطر لى خاطر ، موقف ضعف ، وضعت ورقة مالية فى علبة الكبريت وعدت لأضع العلبة على حافة النافذة التى خرجت منها ، كان الحصان عند النافذة ، ولكن بعد عدة خطوات عدت إلى الفناء واستعدت الورقة المالية ، تركت الكبريت فهو لا يخصنى ، مازال الحصان عند النافذة ، أمرضنى وأتعبنى حصان العربة هذا .

الفجر يكاد ينبلج ، لم أعرف موقعى ، اتجهت نحو الشمس المشرقة ، نحو المكان الذى ظننت أنها ستشرق منه ؛ فذلك يسرع بى إلى النور ، كنت أتمنى أن يكون خط أفقها فى بحر أو صحراء ، حينما أكون

فى الخارج صباحاً أتجه لمقابلة الشمس ، وحينما أكون فى الخارج مساء أتبعها حتى أجد نفسى وسط الموتى .

لا أعرف لماذا حكيت هذه القصة ، كان باستطاعتى مع ذلك أن أروى قصة أخرى .

ربما فى وقت آخر سيكون بإمكانى أن أحكيها .

آنذاك سترون كم هى متشابهة الأرواح الحيـــة .

* * *

المهـــــدئ

لا أعرف متى كان موتى ، بدا لى دائماً أنى مت عجوزاً ، فى حوالى التسعين ، ويا لها من سنين ، يؤكد مرورها جسدى من الرأس إلى القدم ، ولكن هذا المساء ، وحيداً فى سريرى الجليدى ، حيث السماء تسقط بكل أضوائها فوقى ، تلك التى غالباً ما حدقت فيها ، منذ خطواتى الأولى المتعثرة على الأرض البعيدة ، يتملكنى شعور أنى أطول عمراً من الأيام والليالى ، ولأنى خائف جدًّا هذا المساء لأصغى لتعفن نفسى ، منتظراً نوبات القلب الحادة ، وتهتكات جدران الأمعاء ، وانتهاء عمليات القتل البطىء فى جمجمتى ، الانقضاض على أعمدة راسخة ، الجماع مع الموتى .

لذا سأحكى لنفسي قصة ، سأحاول، وأحكى لنفسى قصة أخرى ، أحاول تهدئة نفسى ، آنذاك أشعر أنى عجوز ، عجوز ، أطول عمراً من اليوم الذى سقطت فيه طالباً المساعدة ، التى أتت ، أو من الممكن أنى فى هذه القصة قد عدت ثانية للحياة بعد موتى ؟ لا ، ليس أنا الذى يعود للحياة بعد موتى .

ما الذى يتلبسنى لأتململ حينما لا أكون مع أحد ؟ هل لفظونى ورمونى ؟ لا ، لم أكن مع أحد ، أرى وكراً مملوءاً بعلب صفيح فارغة ، مع أننا لسنا فى الريف ، ربما خرابة ، أو مبنى باهظ النفقات لم يستطع صاحبه أن يتمه ، على أطراف المدينة ، فى حقل ؛ لأن الحقول تجاورنا ، فالبقر يستلقى ، فى الليل ، محتمياً بالأسوار .

ومع تيار الهزائم التى اجتاحتنى ، غيرت مأواى كثيراً حتى إنى ما عدت أفرق بين الخرابات والأوكار ، لكن دائماً لا توجد مدينة سواها ،

حقيقة إنك تتحرك صعداً في الحلم ، بيوت ومصانع تشوه الفضاء ، عربات ترام تسير ، وتحت أقدامك المبتلة من العشب تجد فجأة حصى ؛ أعرف فقط مدينة طفولتى ، ولا بد أنى رأيت الأخرى ، لكنى غير مصدق .

كل ما قلته ينتفى ، لم أقل شيئاً ، هل كنت تواقاً لها ؟ هل أغرانى الطقس ؟ كان بارداً ومغيماً ، أنا أصر ، ولكن ليس إلى درجة إغرائى بالخروج ، لم أستطع النهوض في المرة الأولى ، ودعنى أقول ولا حتى في الثانية ، ومتى وقفت ، مستنداً إلى الحائط ، من المستحيل أن أخرج وأمشي ، أتكلم كما لو أن كل شيء حدث أمس ، أمس قريب جدًّا ولكن ليس بدرجة كافية ، لأن ما أقوله هذا المساء يصبح ماضياً هذا المساء ، فى هذه الساعة التى تمضى ، لم أعد مع هؤلاء القتلة فى سرير الرعب هذا ، بل فى مأواى البعيد ، يداى متعانقتان ، رأسى منحن ، ضعيف ، مقطوع الأنفاس ، هادئ ، حر ، وأكبر سنًّا مما كنت عليه فى أى وقت مضى ، إذا كانت حساباتى صحيحة .

إذن سأحكى قصتى فى الزمن الماضى ، كما لو كانت أسطورة ، أو خرافة قديمة ، لأنى هذا المساء أحتاج لعمر آخر ، ليصبح بدوره عمراً آخر ، أصبح فيه ما كنت عليه .

رويداً رويداً ، أخرجت نفسي وبدأت المشى بخطوات قصيرة وسط الأشجار ، آه ، أنظر أشجارًا ، آثار الأيام السابقة غطتها أعشاب نامية متشابكة ، استندت إلى الجذوع لألتقط أنفاسى ، وسحبت نفسى للأمام بمساعدة الأغصان ، لم يبق أى أثر لمرورى السابق ، كانت أشجار البلوط المتهالكة تخلدها ثمارها ، كانت مجرد بستان ، آخر البستان كان قريباً ، ضوء أقل خضرة ونوع من الأسمال ، أشياء قليلة أعلمتنى همساً بذلك ، نعم ، ففى هذه الغابة الصغيرة ، أنَّى وقفت ، حتى لو كنت فى أعمق

أسرارها الفقيرة، فإنك ترى ومضة هذا الضوء الشاحب فوق كل يد ، فالله وحده ، حسب وعده ، يعرف ما هو سر هذا الاستمرار السخيف ، تموت دون كثير من الألم ، أو القليل منه ، ذلك يستحق ما تقوم به ، وتحت السماء العمياء ، أقفل بيديكَ العينان اللتان سرعان ما تغوصا فى محجريهما ، ثم تضحى جيفة لا تخطئها الغربان . تلك ميزة الموت غرقاً ، إحدى هذه الميزات أن السلطعونات لا تصلك بسرعة ، ولكن هناك أمر غريب ، فما إن تحررت من الغابة أخيراً ، عابراً بلا وعى الخندق الذى يحيطها ، حتى حطت علىّ أفكار قاسية ، تدفع للابتسام ، تمتد أمامي أرض مغطاة بالعشب ، لم أر مثلها ، من يهتم ، مشبعة بندى المساء ، أو بمطر هطل حديثاً ، خلف هذا المرعى – حسب معلوماتى الأكيدة – يوجد ممر ، ثم حقل ، وفى النهاية سور يغلق الموقع ، سور هائل بمزاغل ، يقف باهتاً يناطح سماءً تبدو بصعوبة أقل كآبة منه ، وكما يبدو لى فهو ليس خراباً ، ولكن حسب معلوماتى المؤكدة فهو في الحقيقة خرابة هذا هو المنظر الذى طالعنى فى عبث ، فأنا أعرفه جيداً وأشمئز منه ، ما رأيته كان رجلاً أصلعاً ببدلة بنية ، كوميدى ، كان يقص حكاية فكهة عن إخفاق تام ، هربت منى فكرتها ، استخدم كلمة حلزونة أو بزاقة لإسعاد الحاضرين ، كانت النساء أكثر استمتاعاً ممن يرافقهن ، حماتهم إذا كان ذلك القول ممكناً ، يعلو ضحكهن المجلجل على صوت التصفيق ، وحينما يخمد التصفيق فإن ضحكاتهن تظل تنفجر هنا وهناك فى جلجلات مفاجئة حتى بعد بداية القصة التالية مما يجعل جزءًا منها يضيع على الحاضرين . ربما دارت فى أذهانهن أفكار غريبة ، ومن ذلك الجانب الممتع انطلقت صيحات الفرح تجاه ساعة المرح ، يا لها من موهبة ، ولكن بالنسبة لى فإن شيئاً سيحدث لجسدى هذا المساء ، كما فى الأساطير أو التحولات ، هذا الجسد المتهالك الذى لم يحدث له شىء ، أو حدث له شىء قليل ، الجسد الذى لم يتفق مع أحد أو أحب أى شىء ، أو رغب فى شىء ،

فى كونه الملطخ ، عدا رغبته فى المرايا ليحطمها ، وليختف فى فوضى صورها المستوية والمنحنية والمتضخمة والمتضائلة .

نعم ، فى هذا المساء ، سيكون الأمر كما فى القصة التى اعتاد أبى قراءتها لى حينما كنت صغيراً ، مساء بعد مساء ، وكان بكامل صحته ، وذلك ليهدئنى ، مساء بعد مساء ، سنة بعد سنة ، يبدو لى كأنـه هذا المساء ، لا أذكر كثيراً منها ، عدا أنها كانت إحدى مغامرات « جوبريم أوبرين » ابن حارس فنار ، صبى قوى فى الخامسة عشرة ، يسبح أميالاً فى الليل ، سكينة بين أسنانه ، وراء سمكة قرش ، تلك كانت الكلمات ، نسيت لماذا يفعل ذلك ، ولا أذكر سوى بطولته الصرفة ، كان باستطاعته أن يحكى لى القصة ببساطة ، فهو يحفظها عن ظهر قلب ، وكذلك أنا ، ولكن ذلك لم يكن ليهدئنى ، فكان عليه أن يقرأها مساء بعد مساء ، أو يتظاهر بأنه يقرؤها ، يقلب الصفحات ويشرح الصور التى كانت عنى بالفعل ، مساء بعد مساء ، الصور نفسها ، حتى أنعس على كتفه ، ولو كان تخطى أى كلمة ، لكنت ضربته بقبعتى الصغيرة ، فى كرشه الكبير المتدلى من سترته الصوفية القديمة وسرواله غير المزرر ، اللذان يريحانه من بزته الرسمية .

المهم بالنسبة لى الآن ، هو التقدم والصراع من أجل العودة للشخص العجوز الذى هو أنا ، أكبر مما كان عليه أبى ، وأكبر مما سأصبح ، عبرت المرعى بخطوات قصيرة متيبسة ، أعرج فى الوقت نفسه ، أفضل ما قدرت عليه ، لم يتبق أى أثر لمرورى السابق ، كان ذلك منذ فترة طويلة ، فسيقان النبات الصغيرة التى ديست سرعان ما استوى عودها ثانية طلباً للهواء والضوء ، أما السيقان التى كسرت فقد استحوذت على مكانها سيقان أخرى ، دخلت المدينة مما يطلقون عليه بوابة الرعاة ، دون أن أرى أحداً ، سوى الخفافيش الأول كصلبان طائرة ، لم أسمع صوتاً عدا صوت خطواتى ، ودقات قلبى فى صدرى ، ثم عند عبورى القوس

سمعت نعيق بومة ، تلك الصرخة المفاجئة الناعمة الوحشية والتى تتردد منادية ومجيبة فى ليل غابتى الصغيرة وما يجاورها ، ترن فى مأواى كناقوس الخطر ، كلما توغلت فى المدينة صدمني جوها المهجور ، ورغم أن الحوانيت مغلقة فقد كانت مضاءة كالعادة ، بأنوار أسطع من المعتاد ، الأضواء تعم « البتارين » مظهرة البضائع ، لجذب الزبائن بلاشك ، ولدفعهم للقول « يعجبنى هذا أو ذاك سآتى غداً إذا بقيت حيًّا » كدت أقول : يا إلهى الطيب إنه يوم الأحد ، عربات الترام تسير وكذلك الحافلات لكن بحركة بطيئة فارغة هادئة كما لو أنها تسير تحت الماء ، لم أر حصاناً واحداً ، كنت أرتدى معطفى الأخضر الطويل ذو الياقة المخملية ، الطراز الذى كان يرتديه السائقون حوالى سنة ١٩٠٠ ، كان لأبى ، لكنه آنذاك كان بلا أكمام ، معطف واسع ، ما زال يرهقنى بوزنه الثقيل دون أن يبعث فىّ الدفء ، وأذياله تجر على الأرض ، تحكها نوعاً ما ، غدت صلبة ، وأنا أيضاً انكمشت . ماذا يمكن أن يحدث لى فى هذا المكان الخالى ؟

أحسست أن المنازل معبأة بالناس ، يكمنون وراء الستائر ، ينظرون إلى الشارع أو يبحثون بعيداً فى أعماق الغرف ، رءُوسهم فى راحات أيديهم ، غارقون فى الأحلام ، هناك عالياً فوق رأسى ، الشىء نفسه دائماً ، ولم أعرف أكثر من ذلك ، اخترقت المدينة ووصلت إلى البحر ، متتبعاً النهر حتى مصبه ، ظللت أردد غير مصدق أنى سأعود .

القوارب راسية فى الميناء ، مربوطة إلى الحاجز ، بدا عددها كالمعتاد ، ليس أقل ، كما لو أنى أعرف ما هو عددها المعتاد ، لكن الأرصفة مهجورة ، ولا توجد إشارة أو حركة تدل على وصول أو مغادرة ، ولكن كل شىء من الممكن أن يتغير بين لحظة وأخرى ويتحول كالسحر أمام عينى ، فيسرع الناس وتعلو أصوات ضجة أدوات البحر ، وتهتز أشرعة المراكب الكبيرة بوقار ، وأشرعة المراكب الصغيرة بمزح

أكثر ، وسأسمع صيحة النوارس المزعجة وربما صياح البحارة . ومن الممكن أن أتسلل دون أن يلحظني أحد ، على ظهر سفينة شحن تحملنى بعيداً خارج الحدود لأقضى أشهراً قليلة جيدة ، وربما سنة أو سنتين ، فى الشمس وفى السلام قبل أن أموت . وحتى دون الانطلاق إلى ذلك المدى ، فستكون حالة محزنة لو لم أحقق ضمن هذا الحشد المحترم مقابلة صغيرة تهدئنى قليلاً ، أو أتبادل كلمات قليلة مع بحار مثلاً ، كلمات أحملها معى إلى مأواى ، أضيفها إلى ذكرياتى .

انتظرت جالساً على رحوية (آلة يدور حولها حبل لرفع المرساة) مكسور أعلاها قائلاً إذا كانت الرحويات الحقيقية لا تعمل هذا المساء فما بالك بهذه ! حملقت فى البحر ، فيما وراء الأمواج المتكسرة ، دون أن أرى شبحاً لمركب ، استطعت رؤية الأضواء تتلألأ على صفحة الماء ، والمنارات الجميلة فى مدخل الميناء وأخرى على البعد ، تسطع أضواؤها من الشاطئ والجزر والألسنة ، ولعدم رؤيتى إشارة أو حركة ، هيأت نفسى للسير ، أبتعد حزيناً عن هذا الميناء الميت ، فهناك مناظر تدعو إلى أن يودعها المرء بطريقة غريبة ، كان علىّ فقط أن أحنى رأسى وأنظر إلى قدمى ، ففى هذا الوضع كنت أجلب دوماً القوة لـ ، كيف أعبر عن ذلك ، لا أعرف ، إن المساعدة فى وقت الشدة تأتينى دائماً من الأرض أكثر من السماء ، دون أن أنكر ما تتمتع به السماء من سمعة ، وهناك ، على البلاط الذى رصفت به الممرات ، والذى لم أكن أركز عليه ، ولماذا أفعل ذلك ! رأيت مرفأ بعيداً ، حيث تنهدات البحر السوداء أكثر خطراً ، كل ما حولى عاصف ومدمر .

قلت : لن أعود إلى هنا أبداً ، ولكن حينما رفعت نفسى بدفعة قوية من كلتا يدى المرتكزتين على حافة الرحوية ، واجهنى ولد صغير يمسك بعنزة من قرنيها ، جلست ثانية ، وقف ساكناً ، ناظراً نحوى دون أن يبدو

عليه الخوف أو النفور . أعترف أن الضوء كان ضعيفاً ، بدا لى صمته طَبَعِيًّا ، ولقد أرضاني أن يكون الأكبر هو السابق فى الحديث ، كان حافياً ويرتدى أسمالاً ، ولأنه كثير التردد على البحر ، فقد انتحى جانباً ليرى لماذا تركت هذه الكتلة الضخمة - التى هى أنا - على جانب رصيف الميناء ، هكذا كان تيار أفكارى ، ومقترباً منى الآن ، بعينى أطفال الحوارى الضيقتين ، لم يعد لديه شك ، ومع ذلك بقى منتظراً ، أيمكن أن يكون هذا التفكير الأساسى خاص بى ؟ أن يثيرنى شىء ، فى النهاية فهذا ما خرجت أبحث عنه بشكل ما ، وقررت التحدث إليه وأنا مفعم بأمل صغير إلى ميزة ما قد يتلو ذلك ، وهكذا ، رتبت الكلمات ، وفتحت فمى ، ظانًّا أنى سأسمعها ، لكن كل ما سمعته كان نوعاً من القعقعة الغامضة ، حتى بالنسبة لى أنا الذى كنت أعرف القصد منها ، كان لا شىء ، مجرد همهمة بسبب الصمت الطويل ، كما يحدث لقطعة خشب تعتم على فوهة نار المدفأة ، أذكر وأنا أقول الحق أنه تحرك تجاهى دون أن يترك عنزته ، وقدم لى قطعة حلوى أخرجها من ورقة مطوية ، كتلك التى يمكن أن تشتريها ببنس ، لم تقدم لى حلوى منذ ثمانين سنة على الأقل ، أخذتها بلهفة ودسستها فى فمى ، وعادت إلىّ حركات الأيام الخوالى ، وزاد تأثرى أكثر وأكثر وذلك ما أردته ، كانت قطعة الحلوى ملتصقة ببعضها ، وكان لا بد من قطعها لأفصل القطعة العلوية الخضراء عن القطع الأخرى ، ساعدنى ولامست يده يدى ، بعد لحظة ، وهو يتأهب للتحرك ساحباً عنزته وراءه ، أشرت له بإيماءة كبيرة من جسمى كله أن يبقى ، وقلت فى تمتمة عاجزة: إلى أين يا رجلى الصغير مع عنزتك؟ خرجت الكلمات من فمى بصعوبة وغطيت وجهى خجلاً بسبب ذلك ، كانت كالمحاولة التى تلفظت بها قبل لحظات : إلى أين يا رجلى الصغير مع عنزتك ! لو كان فى إمكان وجهى أن يحمر خجلاً لحدث ، لكن لا يوجد فى بقاياى دم كاف لذلك ، لو كان معى بنس فى جيبى لأعطيته له

ليسامحنى ، لكنى لا أملك بنساً ولا حتى ما يشبهه ، لا شىء سوى فَلَسى ، كنت خارجاً ذلك اليوم وكأنى لا أتعمد الخروج ، لم يُقدَّر لى أن أرى من شخصه الصغير سوى شعره الأسود المجعد ، والتقوس الجميل لسيقانه العضلية الطويلة القذرة العارية ، ولن أنسى فى عجلتى يده الفتية البضة أيضاً ، بحثت عن كلمات أفضل أوجهها إليه ، وجدتها متأخراً ، فقد ذهب ، ليس بعيداً ، لكنه بعيد ، خرج من حياتى أيضاً دون أن يهتم ، لن أخطر على باله ثانية ، ربما حين يغدو عجوزاً ، وينقب فى ذاكرته ، فتعود إليه ذكرى تلك الليلة المشئومة ، فيمسك العنزة من قرنها ثانية ، ويتسكع لحظة قربى ، ومن يعرف ربما بلمسة حنان أو حسد ، لكن تبقى لدى شكوكى حول ذلك ، أيها الحيوانين الأعجميْين العزيزين كم كنتما تساعدانى ! ماذا يفعل راعيكم ؟ ذلك ما كنت سأقوله له لو أعطانى الفرصة ، لكنهما أصبحا فى الحال ليس أكثر من بقعة وحيدة ، ولو لم أكن عرفتهما ، لظننتهما قنطورا صغيرا . كنت فيما أظن سآخذ روث العنزة ، ثم ألتقط حفنة من الحبوب باردة وصلبة ، أشمها وحتى أتذوقها ، لا ، ذلك لن يساعدنى هذا المساء ، أقول هذا المساء كما لو كان دائماً هو المساء نفسه ، ولكن هل هناك مساءين ؟ مضيت ، عازماً على العودة بأقصى ما أستطيع ، لكنها لن تكون عودة بلا جدوى تماماً ، مردداً أنى لن أعود إلى هنا ثانية ، ساقاى كانتا تؤلمانى ، كل خطوة ربما تكون الأخيرة ، وكان يسعدنى ذلك لو حدث ، النظرات التى أرمق بها النوافذ ، متلصصاً ، أظهرتنى كأسطوانة كبيرة منحدرة كما لو على مدحلة فى الطريق ، لا بد أنى كنت أسير بسرعة ، لأنى تجاوزت أكثر من واحد من المشاة ، هناك الأوائل دوماً من الرجال ، ودون المبالغة فى مقدرتى ، أنا الذى ، فى الأحوال العادية ، كان يتخطانى المكسحون دائماً ، ثم أتظاهر بسماع صوت الأقدام يتلاشى خلفى ، ومع ذلك فإن كل خطوة صغيرة قد تكون الأخيرة ، وسيسعدنى ذلك ، كثير من هذا حتى وصلت

ميدانًا لم ألاحظه فى طريقى وأنا خارج ، به كاتدرائية تجثم غامضة فى طرفه البعيد ، قررت أن أدخلها إذا كانت مفتوحة ، وأختبئ ، كما فى العصور الوسطى ، بحثاً عن مكان ، قلت كاتدرائية ، وربما لا تكون كذلك ، لا أعرف ، كل ما أعرفه أنها ستربكنى فى هذه القصة التى تطمح أن تكون الأخيرة ، وأن أتخذ ملجأ فى كنيسة عامة ، من الطراز الساكسونى كما خطر فى ذهنى ، فله تأثير ساحر ، لكنه لا يثيرنى ، بدا صحن الكنيسة الباهر الأضواء مهجوراً ، درت حوله عدة دورات دون أن أرى أى إنسان ، ربما يختبئون تحت مقاعد الكورس ، أو يتدارون وراء الأعمدة كنقارى الخشب ، أسرعت إلى طرف صحن الكنيسة البعيد كما لو أنى فى طريقى إلى الخارج ، لكن الباب الذى دلفت منه لم يكن باب الخروج وإنما ممر جانبى ، وجدت نفسى أسفل سلم حلزونى ، وبدل أن أعود إلى الليل كما عشمت ، بدأت أصعده بسرعة كبيرة دون أن ألقى بالاً إلى حالة قلبى ، مثل إنسان يلاحقه مجنون قاتل بحماس ، يُضاء هذا السلم بضوء خافت لا أدرى بأية وسيلة ، ربما من كوّى مستطيلة ، صعدت لاهثاً مبتعداً بقدر الإمكان عن القاعة التى تبلغ فيها الأصوات ذروتها ، والتى يفصلها عنى فراغ مطوق بحاجز منخفض مهترئ ، يحيط بجدار مستدير أملس متوج بقبة صغيرة مغطاة بالرصاص أو بنحاس صدئ ، فذلك غير واضح لى ، لابد للناس أن يأتوا إلى هنا من أجل المنظر ، أولئك الذين ضلوا السبيل فى حياتهم ، بدأت أدور فى اتجاه عقارب الساعة ، مسطحاً جسمى على الحائط ، ولكن ما إن خطوت بضع خطوات حتى قابلت رجلاً يستدير فى سيره بمنتهى الحذر فى الاتجاه المضاد ، كم وددت لو دفعته ، أو دفعنى ، من فوق الحافة ، حدجنى بغيظ للحظة دون أن يجرؤ على أن يتخطانى ، وقد خمن - وهو مصيب فى ذلك - أنى لن أنزل يدى عن الحائط لأمدها له ، وعلى نحو مفاجئ أدار ظهره لى ، وكذلك رأسه بشكل ما ، ثم ملصقاً ظهره للحائط عاد أدراجه

بحيث لم يبق أثر له سوى يده اليسرى ، التى توانت لحظة ثم اختفت عن ناظرى ، كل ما ظل مرتسماً فى ذهني منه ، عينان متوهجتان جاحظتان تحت قبعة من قماش مربعات ، فى أى كابوس عدمى انغمس ؟ طارت قبعتى ، لكن ليس بعيداً ، والفضل للخيط ، أدرت رأسى تجاه السلم وألقيت نظرة ، لا شىء ، ثم دخلت مجال رؤيتى بنت صغيرة يتبعها رجل يمسكها من يدها ، كلاهما يلتصق بالحائط ، دفعها الرجل إلى السلم واختفى وراءها ، التفت ورفع تجاهى وجهاً جعلنى أتراجع ، استطعت أن أرى رأسه العارى فقط يبدو من الدرجة العليا ، حينما اختفيا ، ناديت ، أنهيت بسرعة بقية الشرفة المستديرة ، لا أحد ، لمحت عند الأفق ، حيث تلتقى السماء والبحر والسهل والجبل ، بعض النجوم المنخفضة ، متميزة عن النيران التى يشعلها الرجال فى الليل أو تشتعل وحدها ، ذلك يكفى ، عدت إلى الشارع محاولاً الاستدلال على الطريق من السماء ، فأنا أعرف الدب الأصغر والأكبر جيداً ، لو رأيت أى شخص فسأوقفه لأسأله عن الطريق ، فأكثر الظواهر شراسة لم تكن لترهبنى ، كنت سأقول له : لامساً قبعتى ، عفواً يا صاحب السعادة « علشان خاطر ربنا » أين بوابة الرعاة ؟ كنت أظن أنى لن أستطيع السير ، لكن ما إن وصل الأمر إلى ساقي حتى مضيت ، صدق أو لا تصدق ، وبخطوة معتدلة جدًّا ، لم أكن عائداً خاوى الوفاض ، ليس تماماً ، كنت عائداً باقتناع فعلى أنى ما زلت من هذا العالم ، ومن ذلك العالم أيضاً ، بشكل ما ، لكنى كنت أدفع الثمن ، كان من الأفضل أن أقضى الليل فى الكاتدرائية ، على الحصيرة أمام المذبح ، ثم أستأنف سيرى عند بزوغ الفجر ، أو ربما وجدونى ممدداً على شفا الموت ، الجسم الإنسانى النبيل ترمقه عيون زرق مفعمة بأمل كبير ، ويكتبون عنى فى صحف المساء ، فجأة هبطت شارعاً واسعاً ، شبه مألوف ، وإن لم أكن قد وضعت فيه قدمى من قبل ، أدركت فى الحال أنى أهبط تلاً ، استدرت ورجعت أدراجى ، لأنى خفت لو واصلت سيرى أن أعود إلى البحر حيث حلفت ألا أعود إلى البحر حيث حلفت ألا أعود ،

وحينما أقول استدرت فأنا أعنى أنى درت فى شبه دائرة واسعة دون إبطاء خوفاً إذا توقفت ألا أستطيع السير ثانية ، نعم ، كنت خائفاً من ذلك أيضاً ، وهذا المساء بالذات لا أجرؤ على التوقف ، صدمنى أكثر وأكثر التناقض بين الشوارع المضاءة بشدة وجوِّها المهجور ، هل أقول إنها أحبطتنى ، لا ، أقول « كله محصل بعضه » لأهدئ نفسى ، هل أقول لا يوجد أحد فى الخارج ؟ لا ، لم أصل إلى هذا المدى ، لأنى لمحت عدداً من الأشكال ، لإناث وذكور ، أشكال غريبة ، لكنها ليست أغرب من المعتاد ، بالنسبة للوقت فليس لدى أدنى فكرة ، سوى أن الساعة لابد أن تكون إحدى ساعات الليل ، ربما الثالثة أو الرابعة صباحاً ، كما قد تكون العاشرة أو الحادية عشرة مساء ، يعتمد ذلك على حكم الشخص بالنسبة لندرة المارة أو التألق غير العادى الذى تطرحهُ مصابيح الشوارع وإشارات المرور ، لأنه بناء على هذه الأمور أو أى منها لن يفشل أحد فى التساؤل حولها إلا إذا كان مخبولاً ، لم أر أى عربة ملاكى ، ولكنى أعترف أنه من وقت لآخر تمر إحدى العربات العامة ، تتهادى صامتة فارغة . ليس لى رغبة فى الانشغال بهذه التناقضات ، وغنى عن القول أنه ليس لى خيار إلا أن أضيف الملاحظات التالية . كل البشر الذين رأيتهم كانوا يسيرون فرادى غارقين فى ذواتهم ، إنه أمر عادى لكن تخيل لو ربطته بأشياء أخرى ، الاثنان اللذان رأيتهمامعاً كانا رجلين يزحفان وقد التفت سيقانهم معاً . رأيت راكب دراجة واحد ، يسير فى الاتجاه الذى أسير فيه ، كلهم كانوا يسيرون فى الاتجاه نفسه حتى العربات ، أدركت ذلك لتوى ، كان يبدل ببطء فى وسط الشارع ويقرأ صحيفة أمسكها بكلتا يديه مفرودة أمام عينيه ، وبين حينٍ وآخر كان يرن جرسه دون أن يتوقف عن القراءة ، راقبته وهو يتقدم حتى لم يبق منه سوى نقطة فى الأفق ، فجأة ، اندفعت إلى الشارع ، كالأرنب ، امرأة شابة ، ربما عابثة ، مشعثة الشعر ، منكوشة الملابس ، ذلك كل ما أردت إضافته ، ولكن هاهنا شيء

غريب آخر ، فإنى لا أشعر بالألم ، ولا حتى فى ساقى ، ضعف عام فقط ، كابوس ليلي جيد وعلبة سردين باستطاعتها استعادة حساسيتى ، أحد ظلالى يطير أمامى متناقضاً ، ينزلق تحت قدمى ، يتبعنى كما تفعل الظلال ، هذه الدرجة من عدم الشفافية بدت لى حاسمـة ، وللاحتفـاظ بالعزف على المنوال نفسه ، لكيلا أنسى ، برز أمامى رجل على الجانب نفسه من الشارع ، يسير فى الاتجاه نفسه ، كانت المسافة بيننا معقولة ، سبعون خطوة على الأقل ، وخوفاً من أن يفلت منى أسرعت خطوى ، وكانت النتيجة أنى اندفعت للأمام كما لو أنى على عجلات ، قلت هذا لست أنا ، فلأستفد من هذا الوضع قدر ما أستطيع ، وحينما وجدت نفسى ، فى لحظة ، على بعد عشر خطوات منه فقط ، أبطأت حتى لا أنقض عليه فجأة فأرفع درجة الكراهية التى يوحيها شخصى حتى فى أقصى درجات بؤسه ومواقفه المتذللة ، بعـد فتـرة قصيـرة ، محتفظـاً بخطوتـى مع خطوته ، أسير متواضعاً ، قلت : معذرة يا صاحب السعادة ، أين بوابة الرعاة من أجل الله ؟ كان الرجل يبدو عادياً عن قرب ، بعيداً عن ذلك الجو الذى أشرت إليه ، والانغلاق على الذات ، تقدمت بضع خطوات ، التفت منكمشاً ، لمست قبعتى وقلت فى نفسى : الآن الوقت المناسب لطلب العـون ، وكأنـى أنـا أيضاً لم أوجـد ، اختفـى ، ومـاذا عن الحلـوى ؟ صرخت : ضـوء ، إذا سلمت بحاجتى للمساعدة فلم أستطع أن أفهم لمـاذا لم أعترض طريقه ؟ لم أستطع ، ذلك كل ما فى الأمر ، لم أكن أستطيع لمسه ، رأيت مقعداً حجريًّا على الرصيف ، جلست عليه واضعاً ساقاً على ساق مثل الوتر ، لابد أنى غفوت ، لأنى فى لحظة الوعى التالية كان هناك رجل يجلس بجانبى ، كنت ما زلت أتفحصه حينما فتح عينيه وسلطهما علىّ ، كما لو أنه يرانى لأول مر ، فقد تراجع بنفور وقال : من أين انبثقت ؟ أثر فى نفسى كثيراً وبشكل سريع أن أسمع أحداً يخاطبنى مرة ثانية ، قال : ما حكايتك ؟ حاولت أن أبدو كإنسان له مشكلة من نوع

مألوف للرجل . قلت ، رافعاً قبعتى بحماس ، ومرتفعاً قليلاً عن المقعد الحجرى : عفواً سعادتكم هذا وقت الرحمة من أجل الله ، قال : وقت ؟ لا أذكر أى وقت ، فالوقت لا يفسر شيئاً ، ذلك ما أذكره ، وذلك لم يرحنى ، ولكن أى وقت فسر أى شىء ؟ أعرف ، أعرف ، سيصل المرء لإدراك ذلك ، وفى غضون ذلك ، قال : ماذا قلت ؟ لسوء الحظ لم أكن قد قلت شيئاً ، وتخلصًا من ذلك سألته إذا كان بإمكانه أن يساعدنى لأجد طريقى الذى فقدته ، قال : لا ، لأنى لست من هذه الأنحاء وإذا كنت أجلس على هذا الحجر فلأن الفنادق مملوءة أو لا تسمح لى بالإقامة لا أستطيع أن أجزم ، لكن احك لى قصة حياتك ، وسنرى .

صحت : حياتى ! قال : ولماذا لا تفعل ؟ أنت تعرف ، ذلك النوع من .... ماذا أقول ؟ أطال التفكير لفترة ، بلا شك يحاول التفكير بنوع الحياة التى يمكن أن يطلق عليها حياة فعلا ، فى النهاية قال كأنه يختبرنى : هيا ، كل فرد يعرف ذلك ، وزغدنى فى ضلوعى ، قال : لا ضرورة للتفاصيل ، الخطوط العامة الأساسية ، ولما بقيت صامتاً ، قال : هل أخبرك بقصة حياتى ؟ آنذاك سترى ما أعنيه ، المعلومات التى رواها مختصرة ومكثفة ، حقائق دون تعليق ، قال : ذلك ما أسميه حياة ، هل تفهمنى الآن ؟ لم تكن قصته سيئة ، تشبه الخرافة كثيراً فى أجزاء منها ، قلت : وبولين ، أما زلت معها ؟

قال : مازلت، لكنى سأتركها وأبدأ مع واحدة أخرى أصغر وتميل إلى السمنة ، قلت : أنت تسافر كثيراً ؟ قال : طبعاً أماكن كثيرة كثيرة .

بدأت الكلمات تسعفنى وبطريقة تبدو معقولة ، قال : أظن أن ذلك يعتبر من الماضى بالنسبة إليك ؟ قلت : هل تفكر فى قضاء بعض الوقت بيننا ؟ صدمتنى هذه الجملة خاصة لما أدت إليه ، قال : إذا لم يكن تطفلاً كم عمرك ؟ قلت : لا أعرف ، صاح : لا تعرف ! قلت : ليس بالضبط ،

قال : هل الأفخاذ والمؤخرات والفروج تدور بذهنك كثيراً ؟ لم أفهم ، قال : طبيعى ليس لديك انتصاب ؟ قلت : انتصاب ؟ قال : القضيب ، هل تعرف ما هو القضيب ؟ ذلك الذى بين الساقين . قلت : آه ذلك ، قال : سمكه ، طوله ، صلابته واشتداده ، أليس كذلك ؟ وافقته مع أنى لم أكن لأستخدم تلك العبارات ، قال : ذلك ما نسميه انتصاباً ، وفكر قليلاً ثم قال متعجباً : حاجة غير معقولة ، قلت : فعلاً ، قال : أتملك كل ذلك ؟ قلت : لكن ماذا سيحدث لها ؟ قال : من ؟ قلت : بولين ، أجاب بهدوء وكأنه متأكد مما يقول : ستصبح عجوزاً بدرجة بطيئة أولاً ثم بسرعة أكبر بألم وقسوة متخلصة من الآثام ، حدجته عبثاً ، فلم أر وجهه كاملاً ، وما رأيته منه كان محتفظاً بلونه بدل أن يتحول ويشحب ويتجعد ، كما احتفظ عظم رأسه بتماسكه ، حقيقة كان النقاش مضرًّا بى دائماً ، تشوقت إلى معاملة رقيقة لا نظير لها ، لكنى على استعداد أن أدوسها برقة أيضاً وحذائى بيدى من أجل ظل غابتى ، بعيداً عن هذا الضوء الرهيب ، قال : ما الذى يضايقك ويثقل عليك ؟ كان يضع على ركبتيه حقيبة كبيرة سوداء ، تخيلتها سوداء ، تخيلتها كحقيبة الداية ، كانت مملوءة بزجاجات صغيرة لامعة ، سألته إذا كانت كلها متشابهة ، قال : لا ، لكل الأذواق ، تناول واحدة ورفعها ليريها لى قائلاً : واحد وستة ، ماذا يريد ؟ أن يبيعها لى ؟ أخبرته مستبقاً هذا الاحتمال ، إنى لا أملك نقوداً ، صاح : لا نقود ! وهبطت يده فجأة على قفاى ، وأطبقت أصابعه العصبية على رقبتى ، وبهزة ولفة رفعنى أمامه ، وبدل أن يجهز علىّ بدأ يتمتم بكلمات عذبة حتى إنى بدأت أتراخى وسقط رأسى إلى الأمام فى حجره ، بين كلماته الرقيقة وأصابعه التى تنغرز فى عنقى كان التناقض يصدمنى ، ولكن بالتدريج اندمج التناقضان فى أمل مدمر إذا جرؤت على قول ذلك ، وقد جرؤت ، لأنى هذا المساء لا أملك ما أفقده ، وإذا وصلت إلى هذا الحد فى قصتى ، دون أن يتغير شىء ، لأنه لو حدث تغيير لعرفته ، وتظل الحقيقة

أنى وصلت إلى ذلك ، هذا شيء ، وأما أنه لا شيء تغير ، فذلك شيء آخر ، لا داعى لدفع الأمور ، فهى ستنتهى بلطف ، كما تنتهى خطوة الحبيبة ببطء على السلالم ، فلم يعد فى استطاعتها أن تحب أو تعود ، فخطواتها تعبر عن أنها لن تحب ولن تعود ، فجأة دفعنى بشدة وأرانى القوارير ثانية قائلاً : ها هى كلها لك ، لا يمكن أن تكون الأمور كما كانت قبل قليل ، هل تكون ؟ قال : أتريدها ؟ لا ، لكننى قلت نعم حتى لا أغضبه ، عرض علىّ مبادلة قائلاً : أعطنى قبعتك ، رفضت ، قال : ما هذه الحدة ! قلت : لا أملك شيئاً ، قال : أعطنى شيئاً فتش فى جيوبك ، قلت : لا أملك شيئاً ، خرجت دون أن أحمل شيئاً ، قال : أعطنى رباط حذائك ، رفضت ، ومرت فترة صمت طويلة ، قال أخيراً : وإذا أعطيتنى قبلة ؟ أعرف أن القبل فى بال كثير من الناس ، قال : هل يمكن أن تخلع قبعتك ؟ خلعتها ، قال : ضعها على رأسك ثانية ، تبدو ألطف وأنت تلبسها ، وضعتها على رأسى ، قال : تعال أعطنى قبلة لننهى هذا الأمر ، ألم يخطر بباله أني من الممكن أن أخيب أمله ، لا ، فالقبل ليست رباط حذاء ، لابد أنه رأى على وجهى أن العطف لم ينضب منه بعد ، قال : تعال ، مسحت فمى وتقدمت نحوه ، قال : انتظر لحظة ، ظل فمى ممدوداً ، قال : هل تعرف ما هى القبلة ؟ قلت : نعم ، نعم ، قال : إذا لم يكن سؤالى ساذجاً أو وقحاً متى كانت آخر قبلة لك ؟ قلت : منذ بعض الوقت لكنى ما زلت أستطيع أن أقبل ، خلع قبعته ، من نوع الباولار ، ونقر على منتصف جبينه وقال : هنا وهنا فقط ، له جبين نبيل ، مرتفع وأبيض ، انحنى للأمام مغلقاً عينيه ، قال : بسرعة ، ضممت شفتى كما علمتنى أمى ووضعتهما حيث أشار ، قال : كفى ، رفع يده تجاه البقعة لكنه أنزلها قبل أن يصل بها ، ولبس قبعته ، التفتُّ ونظرت عبر الشارع ، لاحظت آنذاك أننا نجلس فى مواجهة دكان جزار خيل ، قال : ها هى خذها ، لقد نسيت ، نهض ، بدا قصيراً تماماً ، قال بابتسامة

مشعة : مقايضة جيدة ، ولمعت أسنانه ، أصغيت لصوت خطواته تتلاشى ، كيف أقول ما تبقى ، لكنها النهاية ، أو أنى كنت أحلم ، هل أحلم ؟ لا ، لا شيء من ذلك ، لأن الحلم لا شيء ، نكتة ، ويشير إلى ما هو أسوأ ، قلت لنفسى امكث حيث أنت حتى يطلع النهار ، أظل نائماً حتى تُطفأ المصابيح وتعود الحياة إلى الشوارع ، لكنى وقفت وسرت ، عادت آلامى ، ولكن بشيء من العزم الصلب منعتها أن تلفنى كلى ، لكنى قلت سيحدث ذلك شيئاً فشيئا .

سرت فى مشيتى وحدى ، مشية بطيئة ومتصلبة ، وكأن كل خطوة تسعى لحل مشكلة ثابتة ومتحركة لم تواجهنى من قبل ، سأعرف بعد ذلك ، هذا لو كنت عرفت من قبل ، عبرت الشارع ووقفت أمام دكان الجزار ، خلف الحاجز ، على النافذة ، كانت الستائر مسدلة ، ستائر من قماش خشن مخطط بالأزرق والأبيض ، ألوان العذراء ، وملطخ ببقع كبيرة قرنفلية ، والستائر لا تتقابل تماماً فى الوسط لتغلق النافذة ، ومن خلال الفجوة أستطيع تمييز الذبائح المعتمة للخيل المنظفة المسلوخة والمعلقة فى الخطاطيف ورءُوسها متدلية إلى أسفل ، مشيت لصق الجدران ، جوعان لظل ، أتصدق أنه فى لحظات كل شيء سيقال وكل شيء سيعاد ، وساعات المدينة ، ماذا جرى لها ؟ كانت دقاتها الضخمة المثبطة تسقط علىّ من الفضاء حتى فى الغابة ، وماذا أيضاً ؟ آه نعم مفاسدى ، حاولت أن أفكر فى بولين ، لكنها تراوغنى ، تومض لحظة ثم تمضى ، مثل الفتاة فى الشارع .

وهكذا مضيت فى الضوء الفظيع ، منكمشاً فى جسدى ، أجهد نفسى بحثاً عن هدف ، مارًا بهم على اليمين والشمال وفكرى يلهث وراء هذه أو تلك ودائماً يعود بالخيبة ، نجحت مع ذلك فى التركيز لفترة على الفتاة

الصغيرة ، فترة كافية لأراها أكثر وضوحاً من قبل ، كانت تلبس قبعة مربوطة بشريط تحت ذقنها وتحتضن بيدها كتاباً ، ربما كتاب صلوات ، حاولت أن أجعلها تبتسم ، لكنها لم تبتسم ، ولكن اختفت أسفل السلم دون أن تدير لى وجهها ، كان علىّ أن أتوقف ، فى البداية لا شىء ، ثم رويداً رويداً ، أعنى نوعًا من اللغط الهائل ، يتصاعد من الصمت ليصل أقصى مداه ، ربما آتياً من المنزل ، ذلك كان يقوينى ، يذكرنى بأن البيوت مملوءة بالناس ، محاصرة ، لا أعرف ، حينما تراجعت لأنظر خلال النوافذ ، استطعت أن أرى رغماً عنى المصاريع والستائر والقماش ، إن كثيراً من الغرف كان مضاء ، كان ضوؤها معتماً بسبب سطعان الضوء الذى يفيض فى الشارع العريض حتى إنه بقليل من الإدراك أو الشك يعرف المرء أن ليس كل الناس نياماً كما يفترض ، لم يكن الصوت متواصلاً ، لكن تقطعه لحظات صمت ربما بسبب الذعر ، فكرت أن أطرق الباب طالباً الملجأ والحماية حتى الصباح ، لكن فجأة واصلت سيرى ثانية ، وشيئاً فشيئاً غشينى الظلام فى إغماءة بسيطة ، رأيت كتلة من الزهور اللامعة تتلاشى فى شلال رائع من الألوان الفاتحة ، وجدت نفسى أعجب ، فعلى كل واجهات البيوت ، التفتح التدريجى لمربعات ومستطيلات ، النوافذ الزجاجية وإطاراتها الخشبية ، صفراء ، خضراء ، قرنفلية ، حسب لون الستائر ، وجدت ذلك جميلاً ، ثم أخيراً ، وقبل أن أسقط على ركبتى ، كما تفعل الماشية ، ثم على وجهى ، وجدتنى وسط حشد ، لم أفقد وعيى ، حينما أفقد وعيى فلا يمكننى أن أستعيده ، لم ينتبهوا لى مع أنهم كانوا حذرين أن يسيروا فوقى ، مجاملة أثرت بى ، فهذا ما خرجت لأجله ، كانت الأمور جيدة معى ، محاطاً بالظلام والهدوء ، مستلقياً تحت أقدام الفانين ، سابراً غور الفجر الرمادى ، إذا كان الفجر .

لكن فى الواقع ، تعبت جدًّا لكى أبحث عن الكلمة المناسبة ، سرعان ما يعود ، تلاشى الحشد وعاد الضوء ثانية ولم أحتج لرفع رأسى لأعرف أنى عدت للفراغ الأعمى نفسه كما فى ذى قبل . قلت لنفسى امكث حيث أنت ، على الحجر الصديق العطوف ، أو على الأقل اللامبالى ، لا تفتح عينيك ، انتظر الصباح ، ولكنى نهضت ثانية ، ومرة ثانية على الطريق الذى ليس لى ، صاعداً التل على طول الشارع العريض ، من فضل الله أنه لا ينتظرنى ، بريم الفقير العجوز ، أو برين ، قلت : البحر شرقاً ، فغرباً يجب أن أسير ، يسار الشمال ، ولكن عبثاً رفعت عينى إلى السماء بحثاً عن الدب الأصغر والأكبر ، لأن الضوء الذى انغمست فيه أطفأ ضوء النجوم ، مفترضاً أنهم هناك ، الأمر الذى شككت فيه حينما تذكرت السحب .

* * *

النهـــاية

كسونى وأعطونى نقوداً ، النقود كى أبدأ بها ، أعرف ذلك ، وإذا انتهت فلا بد من الحصول على غيرها ، إذا أردت أن أستمر ، الشىء نفسه بالنسبة للحذاء ، فحينما يتمزق يجب أن أصلحه أو أستبدله أو أسير حافياً ، إذا أردت أن أستمر ، ينطبق هذا أيضاً على السترة والبنطلون ، وغنى عن القول ، إنى أستطيع العيش بدون السترة إذا أردت ، الملابس : من حذاء وجوارب وقميص سترة ، لم تكن جديدة ، لكن الميت كان يقاربنى فى الحجم ، يمكننى القول إنّه كان أقصر قليلاً ، أنحف قليلاً ، لأن الملابس لم تناسبنى تماماً فى البداية ، كما أضحت فى النهاية ، خاصة القميص ، فقد مرت أيام عدة قبل أن أتمكن من زرّه عند الرقبة ، أو الاستفادة من الياقة التى تناسبه ، أو شبك طرفيه القريبين من ساقى بالطريقة التى علمتها لى أمى .

لا بد أنه أرتدى ملابس الأحد للذهاب إلى غرفة الفحص ، ربما للمرة الأولى ، ثم لم يستطع احتمالها بعد ذلك ، فليكن ، كانت القبعة مستديرة سوداء وفى حالة جيدة ، قلت لهم احتفظوا بقبعتكم وأعطونى قبعتى ، وأضفت أعيدوا لى البالطو ، أجابوا إنهم قد أحرقوهما مع كل ملابسى الأخرى ، أدركت أن النهاية قريبة على الأقل إلى حد ما .

فى فترة لاحقة ، حاولت استبدال هذه القبعة بكاب أو ببرنيطة لها حافة يمكن أن أسدلها على وجهى ، لكنى لم أفلح ، ومع ذلك لبستها لأنى لا أستطيع التجول عارى الرأس بالحالة التى تبدو عليها جمجمتى . كانت فى البداية حقيرة على رأسى ، ثم اعتادتنى ، أعطونى ربطة عنق بعد

نقاش طويل ، بدت لى جميلة ، وحينما أتوا بها أخيراً ، لم تعجبني ، كنت تعباً فلم أرفضها ، وقد أضحت ذات فائدة في النهاية ، كانت زرقاء بنقوش من نجوم صغيرة .

لم أشعر أني بصحة جيدة ، لكنهم أخبروني أني بصحة تسمح لى بالمغادرة ، لم يوضحوا أن صحتي جيدة كما يجب أن تكون ، لكن ذلك كان مضمون كلامهم .

استلقيت كسلانَ على السرير ، واحتاج الأمر إلى ثلاث نساء ليلبسنني السروال ، لم يبد عليهن أدنى اهتمام بأعضائي الخاصة ، التي وأقول الحق : ليس فيها ما يستحق أن يشار إليه ، فأنا نفسي لم أهتم بها كثيراً ، لكن كان يجب أن تكون هناك ملاحظة ما ، حين انتهين ، نهضت وأكملت ارتداء ملابسي بلا عون ، أخبرنني أن أجلس على السرير وأنتظر ، كل ما كان يغطي السرير قد اختفى ، وقد أغضبني أنهن لم يتركنني أنتظر في سريري المألوف بدلاً من أن أقف في البرد بهذه الملابس « المكبرتة » قلت : كان يجب تركي في السرير حتى اللحظة الأخيرة ، جاء رجال بملابس بيضاء ، بأيديهم مدقات خشبية ، ففككوا السرير وحملوا أجزاءه ، تبعتهم إحدى النسوة ، وعادت بكرسي وضعته أمامي ، لقد أحسنت إذ تظاهرت بالغضب ، ولأبين لهم بوضوح تام مقدار هذا الغضب ضربت الكرسي بركلة طيرتـه ، دخل رجل أشار لي أن أتبعه ، في الصالة أعطاني ورقة لأوقعها ، قلت : ما هذه ؟ تصريح مرور ؟ قال : إيصال بالملابس والنقود التي تسلمتها ، قلت : أي نقود ؟ ساعتها سلمني النقود ، أتصدق كدت أغادر دون بنس واحد في جيبي ، المبلغ ليس كبيراً إذا قورن بمبالغ أخرى ، ولكنه بدا لي كبيراً ، ودعت الأشياء المألوفة بنظرى ، رفقاء ساعات طويلة محتملة ، الكرسي بلا ظهر مثلاً ، أعز الأشياء ، أوقات بعد الظهر الطويلة معاً ، في انتظار حلول موعد النوم ، أحياناً كنت أشعر أن حياته الخشبية تغزوني حتى

أغدو كقطعة خشب قديمة ، لقد كان فيه حتى مكان لدملى ، ثم هناك لوح النافذة الزجاجى برقعته المغبشة حيث اعتدت أن ألصق عينى فى أوقات الضيق ، ونادراً بلا نتيجة ، قلت : أنا مدين لكم بشدة ، هل هناك قانون يمنعكم من طردى عارياً ومفلساً ؟ أجاب : ذلك سيدمر سمعتنا على المدى الطويل ، قلت : ألا يستطيعون إبقائى فترة أطول قليلاً ؟ يمكننى أن أكون مفيداً ، قال : مفيد ! دع المزاح جانباً ، أيمكنك حقًّا أن تكون مفيداً ! وأضاف بعد لحظة : لو أيقنوا أنك ستكون مفيداً لأبقوك . أنا على ثقة من ذلك ؛ لن أبدأ ذلك ثانية ، كم أشعر بالضعف ، قلت : ربما يوافقون أن يستعيدوا النقود ويبقونى فترة أطول ، قال : هذه مؤسسة خيرية والنقود هبة تأخذها حين تغادر وإذا انتهت فعليك أن تتدبر أمرك للحصول على المزيد إذا أردت أن تحيا ، لا تعد إلي هنا أبداً ، ومهما فعلت فلن يسمح لك بالدخول ، ثم لا تذهب إلى أى فرع آخر فسيطردونك ، صحت مبرطماً ، قال : تعال على كل حال لا أحد يفهم عشر ما تقول ، قلت : أنا عجوز ، قال : لست عجوزاً لدرجة كبيرة ، قلت : هل يمكننى أن أنتظر حتى يتوقف المطر ؟ قال : يمكنك أن تنتظر فى الرواق ، المطر سيستمر طوال اليوم ، يمكنك الانتظار حتى السادسة مساء ، ستسمع الجرس ، إذا اعترضك أحد فقل فقط إنك معك تصريح باتقاء المطر فى الرواق ، قلت : ما الاسم الذى أقوله : قال : وير .

لم يمض وقت طويل وأنا فى الرواق حتى توقف المطر وسطعت الشمس ، كانت منخفضة وخمنت أنها داخلة على السادسة واضعاً الفصول فى الاعتبار ، مكثت هناك متطلعاً عبر المدخل المقنطر إلى الشمس وهى تختفى ، برز لى رجل وسألنى ماذا أفعل ؟ وماذا أريد ؟ أجبت بلطف شديد : إن مستر وير سمح لى بالبقاء حتى الساعة السادسة ، ابتعد ، لكنه عاد لتوه ، لابد أنه تحدث مع مستر وير لأنه قال : لا تتسكع فى الرواق فالمطر قد توقف .

شققت طريقى عبر الحديقة ، كان هناك ذلك الضوء الغريب الذى ينهى يوماً من مطر متواصل ، حيث تظهر الشمس وتصفو السماء فى وقت متأخر دون فائدة ، الأرض تصدر أصواتاً كالتأوهات ، وآخر القطرات تتساقط من السماء الصافية الفارغة ، ولد صغير يمد يديه إلى السماء ويسأل والدته كيف يمكن أن يحدث شىء كهذا ؟ تذكرت فجأة أنى نسيت أن أطلب من مستر وير قطعة خبز ، كان بالتأكيد سيعطينيها ، فكرت بذلك بالفعل أثناء نقاشنا فى الصالة ، قلت لنفسى لِنُنْهِ حديثنا أولاً ثم أطلب منه بعد ذلك ، كنت متأكداً أنهم لن يبقونى ، كان يسعدنى أن أعود ، لكنى كنت أخاف أن يوقفنى الحراس ويخبرونى أنى لن أستطيع رؤية مستر وير ثانية ، وذلك سيضاعف أحزانى ، وعلىّ كل حال ، فهل فى مثل هذه الظروف أنا لا أرجع أبداً .

فى الشارع تهت . لم أخطُ فى هذا الجزء من المدينة منذ وقت طويل ، وبدا لى أنه تغير كثيراً ، مبان كاملة اختفت ، الأسيجة تبدلت مواقعها ، وفى كل ناحية أسماء تجار بحروف كبيرة لم أرها من قبل ، تلعثمت فى نطقها ، شوارع لا أذكرها وبعض ما أذكره قد تلاشى ، وأخرى تغيرت أسماؤها تماماً ، إحساسى العام كان هو نفسه ، حقيقة لم أعرف المدينة جيداً ، إنها مدينة أخرى مختلفة .

لم أعرف أين يُفترض أن أذهب ، كان حظى كبيراً أكثر من مرة فى ألا تدوسنى العربات ، شكلى مازال يبعث فى الناس الضحك ، تلك الضحكة القلبية المرحة المفيدة للصحة ، سرت ، محافظاً أن يكون ذلك الجزء الأحمر من السماء على عينى قدر إمكانى ، فوصلت النهر ، هنا بدا لى للنظرة الأولى أن كل شىء كما تركته ، ولكن بتدقيق النظر تجد بلا شك تغيرات كثيرة ، وقد قمت بهذا بعد ذلك ، لكن المنظر العام للنهر بتدفقه بين ضفتيه وتحت قناطره ، لم يتغير ، نعم ، ما زال النهر يعطى انطباعاً بأنه يتدفق فى الاتجاه الخاطئ ، حزمة من الأوهام تنتابنى ،

مقعدى مازال هناك ، تشكل ليناسب انحناءات الجسد ، يقع بجانب حوض مياه ، هدية من المسز ماكسويل إلى خيول المدينة ، كما هو موضح عليه ، عدة أحصنة استفادت من الأثر ، أثناء فترات الاستراحة القصيرة التى قضيتها هناك ، كنت أسمع الحدوات الحديدية تقترب ، وصلصلة عدة الحصان ، ثم الصمت ، ذلك لأن الحصان ينظر إلىّ ، ثم صوت الشرب ، ثم الصمت ثانية ، حتى يرتوى الحصان أو يعتقد الحوذى أنه ارتوى . الخيل فى طبعها القلق ، ذات مرة حين توقفت الضجة ، التفت فوجدت الحصان ينظر نحوى ، والحوذى أيضاً ، لا شك أن مسز ماكسويل ستسعد لو رأت حوضها يقدم هذه الخدمات للمدينة .

حينما حل الليل ، بعد شفق ممل ، خلعت قبعتى التى كانت تؤلمنى ، تشوقت أن يضمنى مكان خال ، حميمى ودافئ ، مضاء صناعيًّا ، أختار له مصباحاً غازيًّا بضوء قرنفلى ، وبين حين وآخر يمر علىّ صديق ليتأكد أنى بخير ولا أحتاج شيئاً ، لقد مضى وقت طويل دون أن أتشوق لشىء ، وتأثير ذلك على نفسى كان قاسياً .

فى الأيام التالية ، درت على عدة أماكن للسكن ، دون أن أوفق ، عادة يصفقون الباب فى وجهى حتى حينما أبرز نقودى وأتعهد بالدفع أسبوعاً مقدماً أو أسبوعين ، لكن بلا نتيجة ، أتحلى بأحسن صفاتى ، وأبتسم وأتكلم بطريقة توحى بالثقة ، يصفقون الباب فى وجهى حتى قبل أن أنهى كلامى ، لكن هذه المرة أتقنت طريقة لرفع القبعة بشكل محبب ومميز ، لا مبتذلاً ولا وقحاً ، أخفضها بمهارة إلى الأمام ، ثم أرفعها للحظة بطريقة متوازية حيث لا يرى من أخاطبه قرعتى ، ثم أعيدها ثانية على رأسى ، ولكن أفعل ذلك بشكل طبعى دون خلق انطباع غير محبب ، ليس أمراً سهلاً .

حينما اعتقدت أن إمالة القبعة ستكون كافية ، لم أفعل أكثر من إمالتها ، وحتى ذلك لم يكن سهلاً ، حللت هذه المشكلة بعد ذلك ، وبشكل أساسي أوقات الشدة ، بارتداء قبعة عسكرية وأداء التحية ، لا ، كان ذلك خطأ بالتأكيد ، لا أدرى ، احتفظت بقبعتى فى النهاية ، لم أرتكب أبداً غلطة ارتداء النياشين .

بعض المالكات كن فى حاجة ماسة إلى النقود حتى إنهن سمحن لى بالدخول على الفور والفرجة على الغرفة ، لكنى لم أصل إلى اتفاق مع أى منهن ، وأخيراً وجدت بدروماً وصلت إلى اتفاق مع صاحبته على الفور ، غرابة أطوارى ، ذلك هو التعبير الذى استخدمته ، لا تزعجها ، ومع ذلك فقد أصرت على أن ترتب السرير وتنظف الغرفة مرة فى الأسبوع بدلاً من مرة فى الشهر كما طلبت ، قالت إنه يمكننى الانتظار فى الفناء أثناء التنظيف الذى لن يستغرق وقتاً طويلاً ، وأضافت بتعاطف شديد أنها لن تتركنى أبداً أنتظر فى جو سيئ ، أعتقد أنها كانت يونانية أو تركية ، لم تتحدث عن نفسها أبداً ، لكننى ظننت أنها أرملة أو على الأقل هجرها زوجها ، تتحدث بلهجة غريبة ، ولكنى بدورى لهجتى غريبة أدمج الحروف المتحركة وأحذف الساكنة .

لم أدر أين أنا ، فالرؤية أمامى مغبشة ليست حقيقية ، لا أرى شيئاً من المنزل الذى يرتفع خمسة أو ستة طوابق ، مبنى ، ربما جزء من صف من المبانى المتشابهة ، وصلت عند الغسق ، ولم أعط انتباهاً كافياً للمنطقة المحيطة ، كما كان المفروض أن أفعل لو ظننت أنهم سيصبحون جيرانى ، لكنى الآن فقدت كل أمل ، حقيقة إنى حينما تركت هذا المنزل كان اليوم بهيًّا ، لكنى لا أنظر للخلف حينما أغادر ، لابد أنى قرأت فى مكان ما حينما كنت صغيراً أنه من الأفضل ألا تنظر خلفك حينما تغادر ، ومع ذلك فإنى أحياناً أفعل ، وحتى بدون النظر إلى الخلف يبدو لى أنى

رأيت شيئاً حينما غادرت ، ولكن ما هو ؟ كل ما أذكره خطواتى تنبثق من ظلى قدماً بعد أخرى ، حذائى نشف والشمس أظهرت الشقوق فى جلده .

لا بد من القول إنى استرحت تماماً فى هذا البيت ، فعدا بعض الجرذان فقد كنت وحيداً فى البدروم ، وبذلت المرأة جهدها لتحافظ على اتفاقنا ، عند الظهر كانت تحضر لى صينية كبيرة من الطعام وتأخذ صينية اليوم السابق ، وفى الوقت نفسه تحضر لى قصرية نظيفة لها يد طويلة تشبكها فى ذراعها لتبقى يداها طليقتان لحمل الصينية ، ولا أراها باقى اليوم أبداً ، إلا أحياناً حينما تتلصص لتتأكد أن لا شيء حدث لى ، ولحسن الحظ فأنا لا أحتاج إلى الحنان ، من سريرى أرى الأقدام تروح وتجيء على الرصيف ، وفى أمسيات معينة ، حينما يكون الطقس جميلاً ، أشعر أنى جميلاً مثله ، أضع الكرسى فى الفناء وأجلس ناظراً إلى جونلات النسوة العابرات .

طلبت نبتة زعفران ، غرستها فى وعاء ووضعتها فى الفناء ، إنها تخضر فى الربيع وربما هذا ليس أوانها المناسب ، تركت الوعاء خارج الغرفة وربطته بخيط مررته من النافذة ، وفى المساء حين يكون الطقس جميلاً ويزحف ضوء الشمس قليلاً على الحائط ، أجلس قرب النافذة وأشد الخيط لأبقى الوعاء فى الضوء والدفء ، لم يكن ذلك سهلاً ، لم أدر كيف أرعاها ، فكل ذلك لم يكن مناسباً لها ، كنت أسمدها قدر استطاعتى فأبول عليها حين يكون الجو جافًّا ، ربما ذلك لم يكن الشيء المناسب ، لقد أورقت ولكن بلا زهور ، ساق ذابلة وبضع وريقات صغيرة ، وددت أن يكون لدىّ زعفران أصفر أو زهرة الحدقية ، ولكن فى الفناء ، لن يجدى ، أرادت السيدة أن ترميها لكنى قلت لها أن تتركها ، أرادت أن تشترى لى نبتة أخرى فقلت لها لا أريد ، أكثر ما آذانى ضجيج الأولاد باعة الصحف ، يدربكون كل يوم فى الساعات نفسها ، أكعاب أقدامهم ندق

الطوار صائحين بأسماء صحفهم وأحياناً بالمانشيتات ، ضجة المنـزل تزعجنى بدرجة أقل ، بنت صغيرة إن لم يكن ولداً صغيراً ، كانت تغنى كل مساء ، فى الوقت نفسه فى مكان ما فوقى ، لم أستطع تمييز كلمات الأغنية لمدة طويلة ، ولكن سماعها يوماً بعد يوم ، جعلنى أخيراً ألتقط بعض مقاطعها ، كلمات غريبة بالنسبة لولد صغير أو بنت صغيرة ، أكانت أغنية من تهيؤاتى أم أنها تصلنى فعلاً من الخارج ؟ كانت نوعاً من التهويدة (أغنية للأطفال كى يناموا) على ما أعتقد ، فهى غالباً تبعثنى إلى النوم ، حتى أنا ! أحياناً كانت تأتى بنت صغيرة ، لها شعر أحمر طويل يتدلى فى ضفيرتين ، لم أعرف من هى ، كانت تتسكع قليلاً فى الغرفة ثم تمضى بلا كلمة .

ذات يوم زارنى أحد رجال الشرطة ، قال إنى يجب أن أوضع تحت المراقبة دون أن يفصح عن السبب ، مشبوه ، ذلك هو السبب ، قال لى إنى مشبوه ، تركته يتحدث ، لم يجرؤ على اعتقالى أو ربما كان قلبه طيباً ، وقسيس أيضاً ، ذات يوم زارنى قسيس ، أعلمته أننى أنتمى إلى فرع الكنيسة البروتستانتية ، سألنى عن رجل الدين الذى أود رؤيته ، رجل من الكنيسة البروتستانتية الكالفنية ، قال أنت ضائع ، ذلك لا يمكن تجنبه ، ربما كان له قلب طيب ، أخبرنى أن أعلمه إذا احتجت مساعدة ، أعطانى اسمه وشرح لى كيف أتصل به ، كان يجب أن أدون ملاحظة بذلك .

ذات يوم ، قدمت لى المرأة عرضاً ، قالت إنها فى حاجة ماسة إلى النقود وأننى إذا دفعت لها ستة أشهر مقدماً فستخفض الأجرة بمقدر الربع فى هذه الفترة ، وميزة هذا العرض أنه يوفر ستة أسابيع ، الأجرة ، وسيئة تبذير رأسمالى الصغير ، لكن هل يمكن القول أن ما سأفعله سيئة ؟ ألن أمكث هنا حتى آخر بنس معى ؟ وحتى إلى ما بعد ذلك ، حتى تطردنى .

أعطيتها النقود وأعطتنى الإيصال .

وذات صباح ، بعد هذه الصفقة بفترة قصيرة ، استيقظت على رجل يهزنى من كتفى ، لم تكن الساعة جاوزت الحادية عشرة بكثير ، طلب منى أن أنهض وأغادر بيته على الفور .

يمكننى القول أنه كان واثقاً تماماً مما يقول ، قال إن دهشته لا تقل عن دهشتى ، فهذا البيت بيته ، ملكه ، والمرأة التركية غادرت فى اليوم السابق ، قلت لكنى رأيتها الليلة الماضية ، قال : أنت مخطئ فقد أحضرت لى المفاتيح فى المكتب فى وقت لا يتجاوز بعد ظهر أمس ، قلت : لكنى دفعت لها أجرة ستة أشهر مقدماً . قال : استعد نقودك ، لكنى لا أعرف اسمها دعك عن عنوانها ، قال : لا تعرف اسمها ! لابد أنه ظن أنى أكذب ، قلت : أنا مريض لا أستطيع أن أغادر هكذا دون إخطار ، قال : لست مريضاً إلى هذا الحد ، وعرض أن يرسل فى طلب سيارة أجرة أو حتى سيارة إسعاف إذا فضلت ذلك ، وقال إنه يحتاج الغرفة فوراً لخنزيره ، وأضاف أنه وهو يكلمنى فإن الخنزير سيصاب بالبرد فى العربة الكارو أمام الباب ولا يوجد من يعتنى به سوى صبى من أولاد الشوارع لم يره قبل وربما هو الآن مشغول بتعذيب الخنزير ، سألته إذا كان فى إمكانه أن يعطينى مكاناً آخر ، أى ركن قديم حيث يمكننى أن أمكث فترة تكفى لشفائى من الصدمة ولاتخاذ قرار فيما أفعله ، قال : إنه لا يستطيع ، وأضاف ولا تظن بذلك أنى قاسى القلب ، قلت : أستطيع أن أعيش هنا مع الخنزير وأعتنى به ، قال : هيا هيا ، تمالك نفسك كن رجلاً ، انهض كفاية .

ضاعت أشهر الأمان الطويلة التى حلمت بها فى لحظة ، فى النهاية فإن أمرى لا يخصه ، كان فى الحقيقة صبوراً للغاية ، لابد أنه زارنى فى البدروم أثناء نومى .

شعرت بضعف وقد كنت ضعيفاً ، تعثرت فى الضوء المعتم ، حملنى باص إلى الريف ، جلست فى حقل فى الشمس ، غرزت أوراق شجر حول حافة قبعتى لتأتينى بالظل ، الليل كان بارداً ، تجولت لساعات فى الحقل ، وأخيراً تعثرت بكومة من الروث .

فى اليوم التالى بدأت رحلة العودة إلى المدينة ، أنزلونى من ثلاث حافلات ، جلست على جانب الطريق وجففت ملابسى ، استمتعت بذلك . قلت لا شيء يمكن عمله الآن ، لا شيء إطلاقاً حتى تجف ، وحينما جفت نفضتها بفرشاة ، أعتقد أنها مقشة وجدتها فى إصطبل . فى الإصطبلات كان دائماً خلاصى .

ذهبت إلى منزل وتسولت كوباً من اللبن وشريحة خبز وزبد ، وأعطونى كل شيء عدا الزبد ، قلت : هل يمكننى الاستراحة فى الإصطبل ؟ قالوا : لا ، ما زالت رائحتى منتنة ، لكنها تسرنى ، أفضلها على رائحتى السابقة التى حرمتنى من الشم إلا من نسمة بين حين وآخر .

فى الأيام التى تلت اتخذت الخطوات الضرورية لاستعادة نقودى ، لكن لا أعرف بالضبط ما حدث ، هل أنى لم أجد العنوان ، أو لم يكن هناك عنوان ، أو أن المرأة اليونانية لم تكن معروفة هناك ، قلبت جيوبى بحثاً عن الإيصال فى محاولة لفك لغز الاسم ، لم أجده ، ربما سرقته وأنا نائم .

لا أدرى كم مكثت جائلاً بهذا الشكل ، أستريح تارة هنا وتارة هناك ، فى المدينة وفى الريف ، عانت المدينة كثيراً من التغيرات ، والريف لم يعد كما أتذكره ، لكن التأثير العام كان نفسه .

ذات يوم لمحت ابنى ، كان يمشى بخطى سريعة وحقيبة تحت إبطه ، رفع قبعته وانحنى ، ورأيت أنه أصلع كطائر الغرة ، كنت شبه متأكد

أنه هو ، استدرت لألاحقه بنظرى ، انطلق بسرعة بأرجله التى تشبه أرجل البط ، منحنياً ، ماسحاً بقدميه الأرض وهو يرفع قبعته يميناً ويساراً ، لا يطاق ابن الكلبة .

يوماً قابلت رجلاً عرفته فى الأيام الخوالى ، يعيش فى مغارة قرب البحر ، عنده حمار يرعى فى الصيف والشتاء فوق الصخور وعلى الممرات الضيقة التى تقود إلى البحر ، وحينما يسوء الطقس جدًّا ، يلجأ إلى الكهف حتى تنتهى العاصفة ، وهكذا أمضيا ليالىَ كثيرة يتداولان الحديث معاً بينما الريح تعوى والبحر يصخب على الشاطئ ، وبمساعدة هذا الحمار كان باستطاعته أن يوصل الرمل والحشائش البحرية والقواقع لحدائق سكان المدينة . لا يستطيع أن يحمل كثيراً فى المرة الواحدة ، فالحمار كان كبير السن ضئيل الحجم والمدينة بعيدة ، لكنه كان يكسب قليلاً من النقود تكفيه ليجد دخانه وكبريته وليشترى قطعة خبز بين حين وآخر .

وأثناء إحدى تنقلاته هذه قابلنى فى الضواحى ، كان المسكين مسروراً لرؤيتى ، رجانى أن أرافقه وأقضى الليل عنده ، قال : امكث كما تشاء ، قلت : ما بال حمارك ؟ قال : لا تهتم به فهو لا يعرفك ، ذكرته أنى لست معتاداً أن أبقى مع أحد أكثر من دقيقتين أو ثلاث وأن البحر لا يوافقنى ، بدا عليه الحزن الشديد لسماع ذلك ، مضينا معاً فى ظلال أشجار الكستنا المتفتحة على الطوار ، أمسكت الحمار من شعر العنق ، يداً أمام الأخرى ، سخر منا الأولاد الصغار ورمونا بالحجارة ، لكن تنشينهم كان ضعيفاً ، أصابونى مرة واحدة فقط وفى القبعة ، أوقفنا شرطى واتهمنا بإزعاج الأمن ، رد عليه صديقى بأننا من خلق الله المساكين كما أن الأولاد من خلق الله أيضاً وفى مثل هذه الظروف فمن المحتم أن يختل الأمن من وقت لآخر ، وقال : دعنا نواصل السير وسيستتب النظام وسط دهشتك .

اتخذنا طريقنا فى الدروب الخلفية الترابية الهادئة ، وسط أسيجة من الزعرور البرى وشجيرات الفوشيه الحمراء ، وممرات بدت فيها شراشير من الأعشاب والزهور البيضاء ، هبط الليل ، حملنى الحمار إلى مدخل الكهف ، لو كنت وحدى لفقدت طريقى عبر الممر المتعرج شديد الانحدار إلى البحر ، وعاد الحمار صاعداً إلى مرعاه .

لا أعرف كم مكثت هناك ، ولا بد من القول أن الكهف كان منسقاً بشكل ظريف ، عالجت قمل عانتى بالماء المالح وعشب البحر ، لكن لابد أن بعض البيض قد نجا ، وضعت كمادات من أعشاب البحر على جمجمتى ، أراحتنى كثيراً ولكن لفترة غير طويلة ، كنت أستلقى فى الكهف ، وأحياناً أتطلع إلى الأفق ، فأرى فوقى قبة زرقاء شاسعة مرتعشة دون جزر أو ألسنة داخلة فى البحر ، فى الليل كان يسطع ضوء فى الكهف على فترات منتظمة ، وكان أن وجدت قارورة الدواء الصغيرة فى جيبى ، لم تكسر لأن زجاجها لم يكن حقيقيًّا ، اعتقدت أن مستر وير قد صادر كل ممتلكاتى ، مضيفى كان فى الخارج معظم الوقت ، كان يغذينى على السمك ، من السهل لرجل ، رجل عادى ، أن يعيش فى كهف بعيداً عن أى أحد ، دعانى لأمكث قدر ما أريد ، وإذا فضلت أن أكون وحيداً فهو ، وبكل سرور ، سيجهز لى مغارة أخرى ليست بعيدة وسيحضر لى الطعام كل يوم ويزورنى من حين لآخر ليتأكد أنى بخير ولا أحتاج شيئاً ، كان عطوفاً ، ولسوء الحظ لم أكن أحتاج العطف ، قلت : أنت لا تعرف المساكن القريبة من البحيرات ؟ أنا لا أحتمل البحر فى اندفاعه وهيجانه ، بمده وجزره واضطرابه العام ، الرياح تتوقف أحياناً ، قدماى ويداى ، أحس كأن النمل يملؤهم ، وهذا يجعلنى مستيقظاً لساعات ، وأخيراً قلت : إذا بقيت هنا فستحدث لى مصيبة وهناك أشياء طيبة كثيرة يمكن أن تغرينى ، قال : ربما تغرق ، قلت : نعم أو ربما أقفز من صخرة ، قال : أتصدق أنى لا أستطيع الحياة فى مكان آخر ، كنت تعيساً وأنا أعيش

فى كوخي الجبلى ، قلت : كوخك الجبلى ؟ وكرر قصة كوخه الجبلى ، نسيته وكأنى أسمع به لأول مرة ، سألته إذا كان لا يزال يملكه ، قال : إنه لم يره منذ اليوم الذى فر فيه منه ولكنه يعتقد أنه ما زال هناك ، خرب بلا شك ، ولكن حينما ألح أن آخذ المفتاح رفضت قائلاً عندى خطط أخرى ، قال : ستجدنى هنا إذا احتجتنى وأعطانى سكينة .

ما يطلق عليه كوخٌ هو نوع من المأوى الخشبى ، أزيل بابه لإشعال النار أو لغرض آخر ، واختفى الزجاج من النافذة ، وتساقط السقف فى أماكن عدة ، وقُسّم داخله ببقايا حاجز إلى قسمين غير متساويين ، وإذا كان هناك ثمة عفش فى الماضى فقد ذهب ، وعلى أرضه وحوائطه ارتكبت الأعمال المنكرة ، وتناثرت الفضلات الآدمية والحيوانية و « الكابابيد » والقيء على أرضيته ، وعلى قطعة من جلد البقر رسم قلب يخترقه سهم ، لم يكن هناك شيء يجذب السواح ، لاحظت بقايا زهور متروكة ، جُمعت بجشع ، وحُملت لأميال ثم رُميت لأنها ثقيلة أو ذابلة . هذا هو السكن الذى عرض علىّ مفتاحه .

ورغم ذلك فهو سقف يظلنى ، استرحت فوق فراش من نبات السرخس تعبت فى جمعه بيدى ، لم أستطع النهوض ذات يوم ، أنقذتنى بقرة ، نخسها الضباب المثلج فأنت تبحث عن مأوى ، من المحتمل أنها ليست المرة الأولى ، لا يمكنها رؤيتى ، حاولت أن أرضع لبنها بلا نجاح كبير ، ضرعها كان مغطى بالروث ، خلعت قبعتى واستجمعت قواى لأحلبها ، سقط اللبن على الأرض وضاع ، قلت لنفسى لا يهم ، إنه مجاناً ، سحبتنى على الأرض متوقفة بين حين وآخر لترفسنى ، لم أكن أدرى أن بقرنا أيضاً من الممكن أن يكون لا إنسانيًا ، لا بد أنها حلبت منذ فترة قريبة ، تشبثت بالضرع بيد واحتفظت بالقبعة باليد الأخرى تحته ، لكنها فى النهاية انتصرت ، فقد جرتنى عبر العتبة وخارج الكوخ فوق نباتات السرخس العملاقة ، فاضطررت أن أتركها .

وأنا أشرب الحليب لمت نفسى على ما فعلته ، لم يعد بالإمكان الاعتماد على هذه البقرة ، وربما حذرت أقرانها ، لو سيطرت على نفسى لأمكننى أن أصادقها ، ولجاءت كل يوم مصحوبة ببقرات أخر ، وربما تعلمت صناعة الزبد وحتى الجبن ، لكنى قلت لنفسى عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم .

وذات مرة على طريق منحدر رفضت عربات كثيرة أن تقلنى ، لو كنت بملابسٍ أخرى ووجه آخر ربما وافقوا ، لا بد أنى تغيرت منذ غادرت البدروم ، الوجه بشكل خاص وصل إلى مرحلته الحرجة ، الابتسامة البريئة المتواضعة لم تعد ترتسم على محياى ، ولا تعبير البؤس الواضح الذى يدل على عزيز قوم ذل ، حاولت استعادتهما لكن عبثاً ، قناع من جلد قذر مشعر بثقبين وشق ، لقد مضى زمن الحيلة القديمة ، من فضل سعادتك ، ربنا يرزقك ، اشفق علىّ ، كارثة ، إلى أين سينتهى هذا التراجع مستقبلا ؟!

استلقيت على جانب الطريق ، أتلوى كلما سمعت صوت عربة ، حتى لا يظنون أنى نائم أو أستريح ، حاولت أن أتأوه طالباً المساعدة ، لكن النغمة التى صدرت عنى كانت كحديث مؤدب ، ساعتى لم تحن بعد ولم أعد أستطيع التأوه ، فى آخر مرة كان علىّ أن أتأوه فيها ، تأوهت جيداً كعهدى دائماً ، لم يرق لى قلب على بعد أميال ، قلت لنفسى ماذا سيحدث لى؟ ما زلت فى حاجة للتعلم ، استلقيت فى عرض الطريق ، فى مكان ضيق ، وبهذا لن تمر عربة دون المرور فوق جسدى ، بعجلة واحدة على الأقل أو عجلتين إذا كان هناك أربعة ، لكن طلع النهار ، لأتلفت وأجدنى فى الضواحى ، ومن هناك إلى عشش قديمة لم تكن بعيدة ، جرياً وراء أمل غبى فى الراحة أو تخفيف الألم ، وهكذا غطيت الجزء الأسفل من وجهى بخرقة سوداء وذهبت لأتسول فى ركن مشمس ، فقد بدا لى أن عينى لم تفقدا حيويتهما بعد ، الفضل فى ذلك ربما يرجع للنظارات

السوداء التى أعطاها لى معلمى ، أعطانى كتاب « الأخلاق » لجلنكس أيضاً ، كانتظارة رجل وكنت طفلاً ، وجدوه ميتاً ، منهاراً فى دورة المياه وملابسه فى فوضى شنيعة ، انسداد فى الأمعاء قضى عليه ، يالها من راحة ، على كتاب « الأخلاق » اسم وارد ، مكتوب على الورقة البيضاء فى أوله ، النظارات كانت له ، قنطرتها ، فى الوقت الذى أتحدث عنه كانت من سلك نحاسى من النوع الذى كان يستخدم لتعليق الصور والمرايا الكبيرة ، وشريطان أسودان كذراعين ، لفقتهما حول أذنى ثم أسفل ذقنى وربطتهما ، تأثرت العدسات من احتكاكهما ببعضهما بالأشياء الموجودة فى جيبى ، ظننت أن مستر وير قد سلبنى كل ما أملك ، لكنى لم أعد بحاجة إلى هذه النظارة ، استخدمتها فقط لتلطيف آشعة الشمس ، لم يكن من الصواب أن أشير لها ، الخرقة سببت لى متاعب كثيرة ، حصلت عليها من قماش المعطف ، لكنى لا أملك معطفاً الآن ، فهى من السترة إذن ، كانت خرقة رمادية أكثر منها سوداء ، بمربعات ، ولا بد من استخدامها مؤقتاً ، حتى الظهيرة كنت أتجه بوجهى نحو الجنوب ، ثم نحو الغرب حتى المساء ، سبب لى الوعاء متاعب كثيرة ، لم أستطع استخدام قبعتى بسبب شكل جمجمتى ، أما مد يدى فذلك أمر مفروغ منه ، لا أفعله ، وهكذا حصلت على علبة صفيح وعلقتها فى أحد أزرار المعطف ، ماذا جرى لى ، فى أحد أزرار السترة ، فى مستوى عظام الحوض ، لم تكن تتدلى بشكل عمودى ولكنها تنحدر باحترام تجاه المارة ، وما عليهم سوى إسقاط قطعهم الصغيرة ، لكن ذلك كان يضطرهم إلى الاقتراب منى معرضين لخطر ملامستى .

أخيراً ، حصلت على علبة صفيح أكبر ، نوع من علب الصفيح الكبيرة ، وضعتها قرب قدمى ، لكن من يقدم الصدقة يحجم أحياناً ، إذا كان عليه أن يقذفها ، فهو يرى فى هذه الحركة البغيضة نوعاً من الازدراء إلى ذوى الطبائع الحساسة ، ناهيك عن ضرورة التنشين ، فهم على

استعداد للعطاء ولكن على ألا تذهب عطيتهم متدحرجة بين أقدام المارة أو تحت العجلات أو يلتقطها من لا يستحقها ، والنتيجة أنهم لا يدفعون . ولكى أكون دقيقاً فهناك من ينحنى ، لكن عموماً أن من يعطى صدقة لا يهتم بالانحناء ، كل ما يهتمون به ويعجبهم هو أن يلمحوا البائس عن بعد ، يجهزون نقودهم ، يسقطونها مسرعين ، تصل أسماعهم « ربنا يخليك » التى تضيع مع البعد ، أنا شخصيًا لم أقل ذلك أو ما يشبهه ، فلم أكن عميق الإيمان ، ولكنى كنت أهمهم بفمى .

فى النهاية ، حصلت على شىء كاللوح أو الصينية ربطته برقبتى ووسطى ، كان بروزه على ارتفاع مناسب ، ارتفاع الجيب ، وحافته كانت بعيدة عن جسدى ، وهكذا تمنح النقود بلا مخاطرة ، كنت أزينه أحياناً بالزهور والبتلات والبراعم وذلك العشب الذى يسميه الرجال شيح الربيع ، وباختصار بكل ما يمكن أن أجده ، لا أذهب للبحث عن هذه الأشياء ولكن كل ما يصادفنى منها أو ما شابهها يكون من أجل اللوح ، لابد أنهم ظنوا أنى محب للطبيعة ، معظمُ الوقت كنت أتطلع إلى السماء دون تركيز ، ولماذا التركيز ، فمعظم الوقت هى خليط بين الأبيض والأزرق والرمادى ، وفى المساء كل ألوان المساء ، شعرت أنها تحنو علىّ بثقلها ، فأمسح وجهى بها خدًّا بعد الآخر محركاً رأسى من جانب إلى جانب ، ولأريح عنقى بين حين وحين ، أدع رأسى يسقط على صدرى ، آنذاك أتمكن من رؤية اللوح عن بعد غائماً ، بألوان عدة ، أستند إلى الحائط ولكن بلا استهتار ، وأحمل ثقل جسمى من قدم إلى أخرى ويداى تتشبثان بأطراف سترتى ، إذا تسولت ويداك فى جيوبك فإنك تعطى انطباعاً سيئاً ، يضايق العمال خاصة فى الشتاء ، وعليك أيضاً ألا تلبس قفازات أبداً .

ثم هناك أولاد الحوارى ، الذين يستولون على كل ما كسبته بحجة أنهم يتصدقون علىّ ، وذلك ليشتروا حلوى .

فككت أزرار سروالى بتحفظ لأهرش ، أهرش باتجاه علوى بأربعة أظافر ، أنزع الشعر لأشعر بالراحة ، ذلك يجعل الوقت يمضى ، يطير الوقت حينما أحك جلدى ، فى رأيى أن الهرش الحقيقى أرقى من ممارسة العادة السرية ، يستطيع المرء أن يظل يمارس العادة حتى سن السبعين أو لما بعد ذلك ، ولكنها فى النهاية تصبح مجرد عادة ، ولكن لكى أهرش جلدى بشكل صحيح فإنى أحتاج إلى دستة أيدى . أحك كل أنحاء جسمى ، من العانة حتى السرة ، وتحت الإبطين وفى الشرج ، ثم مساحات الأكزيما والصدفية ، مجرد التفكير فيهم يعزونى الألم الفظيع ، أعظم لذة أحصل عليها حينما أهرش فى الشرج ، وإذا رغبت بعد ذلك فى التبرز فإن الألم يكون شديداً ، ولا أكاد أتبرز ، بين حين وآخر تمر طائرة تبدو لى بليدة ، فى آخر النهار أجد غالباً ساق السروال مبتلة ، إنها الكلاب فأنا شخصيًّا أتبول قليلاً جدًّا ، وإذا حزقتنى فإن انبثاق قليل من الماء من عضوى كاف لإراحتى ، أثناء الوظيفة لم أكن أتبول حتى هبوط الليل . إنى فاقد للشهية ، اللهم اجعل الرياح خفيفة علىّ ، بعد انتهاء العمل ، أشترى زجاجة لبن أشربها فى المساء حين أعود للمأوى ، ما زلت أفضل أن يشتريها لى صبى ، وكما هى العادة فهم – أصحاب الدكاكين – لا يرغبون فى خدمتى ، لا أعرف السبب ، أعطى الصبى بنساً لقاء تعبه ، ذات يوم شهدت منظراً غريباً ، لم أكن أرى شيئاً كثيراً فى العادة ولا أسمع كثيراً أيضاً ، وأقول بصراحة كأنى غير موجود ، لأعترف أنى ما كنت لأنتبه لشىء ، لا بد أنى استعدت وعيى بعض الوقت آنذاك إذ سمعت صوتاً يخترقنى ، لم أتقص السبب وقلت لنفسى لا بد له أن يصمت ، وحيث إنه لم يصمت فلم يبق لى خيار سوى البحث عن السبب ، كان رجل يعظ من فوق عربة خاطباً فى المارة ، ذلك على الأقل ، كان تفسيرى ، كان يجأر عالياً حتى إن رذاذاً من خطابه صك مسمعى ، الاتحاد ، الأخوة ، ماركس ، رأس المال ، زبد ، خبز ، حب . كان كلاماً

كاللغة اليونانية بالنسبة لى ، أوقفوا العربة أمامى بالضبط عند الحاجز الحجرى قرب جانب الطريق ، رأيت ظهر الخطيب تماماً ، هذا المنبوذ ، الذى لا يسير على أربع إلا خوفاً من حجزه فى زريبة ، هذا العجوز المقمل المعفن ككومة الروث ، هناك آلاف منه ، أسوأ منه ، عشرة آلاف ، عشرون ألفاً ، وصاح صوت : ثلاثون ألفاً ، وأضاف الخطيب بصوت صاخب : كل يوم تمرون بهم ، تعتبرون أنفسكم قد فزتم حين تطرحون لهم بنساً ، هل سبق أن فكرتم بذلك ، صاح صوت : لا سمح الله ، أضاف الخطيب : بنس ، بنسان ، حسنتكم جريمة ، مقدمة للعبودية ، جريمة منظمة مدعمة ، تمعنوا فى هذه الجثة الحية ، ربما تقولون إنها غلطته ، اسألوه إذا ما كانت غلطته ، صاح صوت : اسأله أنت ، فانحنى تجاهى وطلبنى للإجابة ؛ لقد طورت لوحة التسول ، فهى الآن تتكون من لوحين مربوطين ، أتمكن عند انتهاء العمل من طيهما وحملهما تحت إبطى ، فأنا أحب عمل بعض الأشياء الغريبة ، وهكذا نزعت الخرقة عن وجهى ، ووضعت العملات القليلة التى كسبتها فى جيبى ، حللت لوحة التسول ، طويتها ووضعتها تحت إبطى ، صاح الخطيب : هل سمعتنى يا بن الرذيلة أيها المصلوب المضطهد ، ابتعدت رغم أن النهار لم ينته ، كان الركن هادئاً ، حيويًا ، وليس مزدحماً بدرجة كبيرة ، مزدهراً ومألوفاً ، لا بد أنه متعصب دينى ، لا يمكننى أن أجد تفسيراً آخر ، أو ربما مجنون هارب ، له وجه جميل ، احمر قليلاً من جانبه .

لا أعمل كل يوم ، وعمليًا ليس لى أى نفقات ، حتى إنى بدأت أوفر قليلاً لأيامى الأخيرة جدًا . فى الأيام التى لا أعمل فيها ، أقضى وقتى مستلقياً فى السقيفة ، سقيفة تقع فى ملكية خاصة أو ما كان ذات يوم عزبة على ضفة النهر ، مدخل هذه العزبة يقع فى شارع ضيق مظلم ساكن ، محاطة بسور عدا جهة النهر بالطبع والتى تشكل حدودها الشمالية لمسافة ثلاثين ياردة تقريباً ، وراء الماء وبعد نهاية الأرصفة ترتفع الأعين

إلى خليط مشوش من المنازل المنخفضة والأرض الخراب ، الأسيجة الخشبية ، المداخن ، أبراج الكنائس ، وأرض كأرض الاستعراض حيث يلعب الجنود الكرة على مدار السنة ، نوافذ الدور الأرضى فقط ، لا ، لا أستطيع ، المزرعة مهجورة ، البوابات مغلقة ، الممرات نمت فيها الأعشاب بكثافة ، نوافذ الدور الأرضى فقط لها مصاريع ، النوافذ الأخرى كانت تضاء فى الليل ، بين حين وآخر ، بضوء خافت ، على الأقل كان ذلك انطباعى ، ربما كان انعكاسًا للضوء .

فى اليوم الذى اخترت فيه هذه السقيفة وجدت قارباً مقلوباً ، عدلته ، ثبتته بالحجارة وقطع الخشب ، نزعت مقعد المجداف وهيأت سريرى هناك ، الجرذان تجد صعوبة فى الوصول إلىّ بسبب شكل جسم القارب ، رغم أنهم يتشوقون لذلك ، فكر مثلها ، لحم حى ، برغم كل شىء فما زلت لحماً حيًّا ، عشت طويلاً وسط الجرذان فى المساكن التى صادفتها ، مشاركاً فى الرعب الذى تثيره فى العامة ، حتى إن هناك نقطة دافئة فى قلبى تجاههم ، يتجهون نحوى بنوع من الثقة ، تبدو على الأقل ، لا تحمل أى كراهية ، يقومون بتنظيف أجسامهم بنفس حركات القطط ، فى المساء تظل ضفادع الطين بلا حراك لساعات ، تقتنص الذباب من الهواء ، تحب أن تربض عند الأطراف المغلقة وبداية الهواء الطلق ، تفضل العتبات ، لكن الآن علىّ مكافحة جراذين الماء خاصة تلك الهزيلة الضارية .

وهكذا صنعت نوعاً من الغطاء من ألواح متفرقة ، صادفنى فى حياتى عدد لا يصدق من الألواح ، لم أحتج أبداً للوح ، كانت دائماً توجد وما علىّ سوى الانحناء والتقاطها ، أحب أن أعمل أشياء غريبة ، ليس عن قصد ، فلا يهمنى ذلك ، غطى القارب تماماً ، أقصد الغطاء الذى صنعته ، دفعته قليلاً نحو المؤخرة ، أصعد إلى القارب عن طريق المجداف الأمامى ، أزحف إلى مؤخرة القارب ، أرفع قدمى وأدفع الغطاء ثانية نحو المجداف حتى يغطينى تماماً ، ولكن كيف أدفعه ؟ عن طريق

عمود خشبى مسمرته بالعرض في الغطاء لهذا الغرض ، أحب هذه الأشياء الغريبة ، ولكن كان من الأفضل أن أصعد إلى مؤخرة القارب وأشد الغطاء بيدى حتى يغطينى ثم أدفعه إلى الأمام حين أريد الخروج ، وكممسك ليدى دققت رزتين حيث أحتاجهما ، هذه الأشياء الغريبة وشبه النجارة إذا جاز لى قول ذلك ، نفذتها بمواد وجدتها كيفما اتفق ، وبعثت فيّ سروراً مؤكداً .

عرفت أن النهاية ستكون قريبة ، فلعبت الدور ، أنت تعرف ، الدار ، كيف يمكننى أن أقول ذلك ، لا أعرف ، كل ما يمكننى قوله إنى كنت مستريحاً بدرجة كافية فى هذا القارب ، كان الغطاء محكماً حتى إنى خرمت فيه ثقباً ، ليس من الصواب أن تقفل عينيك ، يجب أن تبقيهما مفتوحتين فى الظلام ، ذلك رأيى ، أنا لا أتكلم عن النوم ولكن عما أظن أنه يطلق عليه اليقظة ، فى حالتى ، أنام قليلاً فى هذا الوقت ، لم أكن نعساناً ، أو وسناناً ، لا أعرف ، أو خائفاً ، لا أدرى .

أستلقى على ظهرى ، لا أرى شيئاً ، عدا ضوء السقيفة الرمادى ، أراه بغير جلاء ، فوق رأسى من خلال شقوق ضيقة ، لا أرى شيئاً على الإطلاق ، لا ، ذلك كثير جدًّا ، أسمع بخفوت صيحات النوارس باحثة عن فريسة عند مصب المجارى القريبة فى فيض الزبد الأصفر ، إذا خدمتنى ذاكرتى جيداً ، فالقذارة تتدفق فى النهر ، تخوض الطيور فوقها صائحة بجوع وغضب ، أسمع اصطدام الماء فى ضفة النهر والمنحدر ، والصوت الآخر ، صوت الموج المنطلق ، مختلفاً ، أسمعه ، وأنا أيضاً حينما أتحرك أحس أنى فوق موجة أكثر منى فوق قارب ، أو هكذا بدا لى ، سكونى كان سكون الدوامات ، ربما بدا ذلك مستحيلاً ، المطر أيضاً أسمعه ، لأنها غالباً تمطر ، تسقط أحياناً قطرة خلال سطح السقيفة وتنفجر فوقى ، كل ذلك يكون عالماً شبه سائل ، ثم هناك أيضاً صوت الريح ، وتلك الأصوات المختلفة للأشياء التى تهزها ، ولكن إلام يرمى

ذلك ؟ عواء أنين ، نواح ، تنهد ، كنت أحب أن يكون ضربات مطارق بانج بانج ، تقرع فى الصحراء ، أدع الضراط ينطلق ولكنه بالكاد يخرج طرقعة حقيقية ، ينز بضجة ناعمة ويضيع فى اللا نهائى .

لا أعرف كم مكثت هناك ، كنت « مكنكناً » فى صندوقى ، بدا لى أن استقلالى قد ازداد فى السنوات الأخيرة ، فلا أحد يزورنى ، لا أحد يمكنه القدوم والسؤال عن حالى وحاجتى ، أزعجنى ذلك قليلاً ، لكنى بخير تماماً ، والخوف من أن تسوء حالتى لا يقلقنى كثيراً ، وبالنسبة لاحتياجاتى فقد تضاءلت كأبعادى ، وأصبحت إذا جاز القول من نوعية مميزة تبعد كل تفكير فى تلقى مساعدة من أحد .

أتعرف ، لقد ملكت يوماً إنساناً ، منفصلاً عنى ، مهما كانت ضآلته وزيفه ، فإنه كان يمتلك القوة لتحريك قلبى ، أصبحت انطوائيًّا ، ذلك حتمى ، كان يجعلك تتساءل أحياناً فيما إذا كنت على الكوكب المناسب ، حتى الكلمات تهجرك ، إن الأمر بهذه الدرجة من السوء ، ربما هى اللحظة التى تتوقف فيها الشرايين على التواصل ، أنت تعرف الأوردة ، حينما تظل ساكناً بين آهتين ، لا بد أنها الأغنية القديمة نفسها كما هى العادة ، ولكن ياللمسيح أنت لا نفكر بهذه الطريقة .

تمر أوقات أرغب فيها أن أدفع الغطاء الخشبى وأخرج من القارب ، لكنى لا أستطيع ، كنت متراخياً وضعيفاً ، راضياً تماماً بوضعى ، شعرت بهم يكتمون أنفاسى ، الشوارع الثلجية الصاخبة ، الوجوه المرعبة ، الضوضاء النى تجلد ، تخترق ، ننبش ، وتخدش ، وأظل هكذا منتظراً حتى تأتى الرغبة فى التبرز والتبول فتعيرنى أجنحة ، لا أريد أن أوسخ عشى ، ولكن أحياناً يحدث ذلك ، وحتى غالباً ، مقوساً ومتصلباً أنزل سروالى وأنحرف قليلاً بجانبى بدرجة تكفى لتحرير الفتحة لأتدبر مملكة صغيرة فى وسط الروث الكونى وأتبرز عليها ، آه ، ذلك هو أنا ،

والفضلات هى أنا أيضاً ، أعرف ، أعرف ، « كله محصل بعضه » ، ذلك يكفى ، يكفى ، الأمر الثانى بدأت الرؤى تنتابنى ، وأنا طفل ، شخصى الوهمى ستنتابه الرؤى ، عرفت أنها رؤى لأن الوقت كان ليلاً وأنا وحدى فى القارب ، فماذا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ؟

هكذا كنت فى قاربى أنزلق على الماء ، لم يكن علىّ أن أجدف ، الجزر يحملنى بعيداً ، وعلى كل حال لم أر مجاديف ، لا بد أنهم أخذوها ، معى لوح ، ربما بقايا مقعد ، المجداف أستخدمه حينما أقترب جدًّا من الضفة أو حينما تندفع دعامة نحوى أو مرساة مركب ، كانت النجوم فى السماء قليلة جدًّا ، لا أدرى ماذا كان الطقس يفعل ، فلم أكن بردانًا أو دافئاً ، وكل شىء بدا هادئاً ، تتراجع الضفتان أكثر وأكثر ، كان ذلك حتميًّا ، لم أعد أراهما ، الأضواء خفتت وقلت ، واتسع النهر ، وعلى الأرض رجال نيام ، يستجمعون القوة لكدح وفرح الغد ، لم يعد القارب ينزلق الآن ، إنه يهتز ويتمايل ، يتلقى ضربات مياه الخليج ، كل شىء بدا هادئاً ، والزبد يغسل سطح القارب .

وها هو هواء البحر يطوقنى ، ليس لى مأوى سوى الأرض ، فى مثل هذا الوقت ، رأيت منارات أربع ، بما فيها ضوء سفينة ، أعرف المنارات جيداً ، حتى وأنا طفل عرفتها جيداً ، كنت مع أبى فوق مرتفع ، كان الوقت مساء ، أمسك يدى ، وددت لو ضمنى إليه إيماءة عن حب يحمينى ، ولكنه كان يفكر فى أمور أخرى ، علمنى أيضاً أسماء الجبال ، ولكن ، ولأنتهى من هذه الرؤى ، رأيت أيضاً أضواء عوامات إرشاد السفن ، بدا البحر مملوءً بهم ، حمر وخضر ، ولدهشتى صفر أيضاً ، وعلى سفوح الجبال ، التى تتراجع بحجومها الضخمة الآن ، المتماسكة خلف المدينة ، تحولت النيران من اللون الذهبى إلى الأحمر ، ومن الأحمر إلى الذهبى ، عرفتها ، إنها الأشجار الشوكية تحترق ، وكم مرة

أشعلت فيها النيران بنفسى وأنا طفل ، وعند العودة إلى البيت بعد ساعات ، وقبل أن أصعد إلى السرير أراقب من شباكى العالى النيران التى أشعلتها ، تلك الليلة كانت إذن ليلة إيقاد النيران البعيدة فى البحر وفى البر وفى السماء .

انجرفت بفعل التيارات والمد ، لاحظت أن قبعتى مربوطة بخيط إلى عروة أحد أزرارى كما أفترض ، قمت عن مقعدى فى مؤخرة القارب ، سمعت طرقعة عالية ، تلك كانت السلسلة ، أحد طرفيها كان مثبتاً فى المجداف الأمامى ، والآخر فى وسطى .

لا بد أنى فى وقت سابق ، قد خرمت ثقباً فى ألواح الأرضية ، لأنى جثوت على ركبتى أخلع السدادة بسكين ، كان الثقب صغيراً ، ارتفع الماء ببطء ، سيحتاج إلى نصف ساعة كاملة ويغرق كل شيء إلا إذا حال حادث دون ذلك .

عدت إلى أحضان مؤخرة القارب ، ساقاى ممددتان ، ظهرى مركون إلى حشية محشوة بالقش استخدمتها كمخدة ، وتواريت خلف هدوئى ، أطبقت علىّ السماء والجبال والبحر والجزر وسحقتنى كانقباض قلب قوى ثم تبعثرت إلى أقصى حدود الفضاء .

أضحت الذاكرة باهتة وباردة من القصة التى كدت أسردها ، قصة على غرار حياتى ، أعنى عدم الشجاعة فى إنهائها ، وعدم القدرة على الاستمرار .

* * *

مالونى يموت - مقطع -

رغم كل شىء ، فسأموت أخيراً ، ربما الشهر القادم ، شهر أبريل أو مايو ، فالسنة مازالت فى بدايتها ، آلاف الأشياء الصغيرة تخبرنى بذلك ، ربما أكون مخطئاً ، وربما أعيش حتى عيد القديس جون أو عيد الحرية فى الرابع عشر من يوليه ، لا أقول ذلك تلهفاً للتغيير أو لغواً فى الافتراض ، لا أظن ذلك ، ولا أعتقد أنى مخطئ حين أقول إن هذه الاحتفالات ستحدث هذا العام ، فى غيابى ، إن لدىّ ذلك الشعور ، أحسه منذ بضعة أيام ، وأصدقه ، لكن فيم يختلف هذا الإحساس عن تلك المشاعر التى اجتاحتنى منذ ولدت ؟ لا ، ذلك النوع من الإغراء لا أرغب فيه الآن ، إن حاجتى لجمال الحياة قد انتهت ، أستطيع أن أموت اليوم إذا رغبت ، بمجرد القيام بمجهود صغير إذا استطعت أن أرغب أو إذا استطعت أن أقوم بمجهود صغير ، ولكن ذلك لا يختلف عن أن أدع نفسى تموت بهدوء ، دون أن أقتحم الأشياء ، لا بد أن شيئاً قد تغير ، لن أعتمد على هذا التوازن فى الإنكار بعد الآن ، سواء بهذا الشكل أو ذاك ، سأكون حياديًّا وساكناً ، لا صعوبة فى ذلك ، لكن الآلام هى المتاعب الوحيدة ، يجب أن أحذر الآلام ، وأنا منذ قدمت هنا أقل استجابة لها ، ومع ذلك لا تزال لمحات من قلة الصبر تنتابنى بين حين وآخر ، يجب أن أحذرها خلال الأسبوعين أو الثلاثة القادمة ، وأن أكون متأكداً - دون مبالغة - أنى أضحك وأبكى بهدوء دون أن أنشغل

بأحوالى ، وسأكون طبعيًا فى النهاية ، أقاسى أكثر ثم أقل فأقل دون تسجيل نتائج ، كما لن أعطى أقل التفاف لنفسى ، لن أشعر بالبرد أو بالحر ، سأكون فاتراً ، أموت وأنا فاتر ، دون حماس ، لن أشاهد نفسى وأنا أموت ، فذلك سيفسد كل شىء ، لكن هل لاحظت نفسى وأنا أعيش ؟ هل سبق أن اشتكيت ؟ إذن لماذا الفرح الآن ؟ أنا راضٍ ولكن ليس بالضرورة لدرجة التصفيق باليدين .

كنت دائماً أشعر بالرضا لأنى أعلم أنى سأثاب فى النهاية ، وها هو الآن غريمى القديم ، هل أرتمى على عنقه ؟ لن أجيب على أسئلة أخرى ، ولن أحاول حتى أن أسأل نفسى ، وبينما أنتظر الموت سأقص على نفسى بعض القصص إن استطعت ، لن تكون قصصاً كالتى تعرفها ، لن تكون جميلة أو قبيحة ، ستكون قصصاً رصينة ، ليس فيها قبح ولا جمال أو حتى انفعال ، قصصاً بلا حياة كراويها .

ما الذى قلته ؟ ذلك لا يهم ، أتطلع إليها لتمنحنى الرضا ، بعض الرضا ، فأنا مقتنع أنى أملك الكثر منها ، ولا أحتاج لمزيد ، ودعني أقول قبل أن أمضى فى حديثى إنى لا أغفر لأحد ، أتمنى لهم جميعاً حياة آثمة ، ثم نار جهنم وصقيعها ، حتى يخرج اسم شريف من الأجيال اللعينة . يكفى ذلك لهذا المساء .

هذه المرة أعرف أين أمضى ، لن تكون هناك ليلة ماضية وليلة قادمة بعد الآن ، الأمر لعبة الآن ، سألعب ، لم أعرف أبداً كيف ألعب ، اشتقت لذلك ، عرفت أنه مستحيل ، ومع ذلك أحاول دوماً .

أنرت جميع الأضواء ، نظرت حولى جيداً ، وبدأت ألعب مع ما أراه ، الناس والأشياء لا تتمنى أكثر من اللعب ، وبعض الحيوانات كذلك ، فى البداية سار كل شىء على ما يرام ، جاءوا جميعاً سعداء لأن هناك من يريد اللعب معهم ، فإذا قلت : أريد أحدباً ، يأتى أحدهم بسرعة

« كالقراقوز » مفتخراً بحدبته التى سيعرضها ، لم يخطر بباله أنى قد أطلب منه أن يتعرى ، لم يمض وقت طويل حتى عدت وحيداً فى الظلام . لذلك تركت اللعب وأخذت على نفسى عهداً أن أكون بلا شكل ، ولا أتكلم ، مختفياً فى الظلام ، أتعجب بلا حب استطلاع وأتعثر طويلاً وذراعاى ممدودان ، هذا هو الجهد الذى لم أستطع أن أقلع عنه منذ قرن من الزمان تقريباً ، لكن منذ الآن سيكون مختلفاً ، لن أفعل شيئاً سوى اللعب ، لا ، لا يجب أن أبدأ بالمبالغة ، سألعب جزءًا كبيراً من الوقت ، الجزء الأكبر إذا استطعت ، لكن ربما لا أنجح كما حدث حتى الآن ، ربما سأجد نفسى مهجوراً كالعادة ، فى الظلام ، ودون شيء ألعب به ، آنذاك ألعب مع نفسى ، وإنه لأمر مشجع ، مقدرتى على تخيل مثل هذه الخطة .

لابد أنى فكرت فى برنامجى أثناء الليل ، أظن أنى أستطيع أن أحكى لنفى أربع قصص ، كل منها بطريقة مختلفة ، قصة تتحدث عن رجل ، وأخرى عن امرأة ، وثالثة عن شيء ، والأخيرة تتحدث عن حيوان ، ربما طائر ، أظن أن ذلك كل شيء ، ربما أضع المرأة والرجل فى قصة واحدة ، فهناك فرق بسيط بين الرجل والمرأة ، خاصة رجل مثلى ، ربما لا يتوفر لى الوقت للانتهاء من ذلك ، أو ربما انتهيت بسرعة ! ذلك لا يهم أيضاً ، لو انتهيت بسرعة سأتحدث عن الأشياء التى بقيت فى حوزتى ، وذلك أمر أردت دائماً أن أفعله ، سيكون نوعاً من الجرد ، على كل حال أترك ذلك إلى اللحظة الأخيرة ، حتى أتأكد أنى لم أخطئ ، سأفعل ذلك بالتأكيد بغض النظر عما يحدث ، ولن يأخذ منى أكثر من ربع ساعة ، ومن الممكن أن يستغرق فترة أطول إذا رغبت ، لكن إذا كنت فى عجلة من أمرى ، فى اللحظة الأخيرة ، فربع ساعة ستكون كل ما أحتاجه لأقوم بجردى ، آنذاك سأكون واضحاً دون تحذلق ، ذلك ما أردته دائماً ، فمن الواضح أنى قد أنتهى فى لحظة ، أليس من الأفضل – إذن – أن أتحدث عن ممتلكاتى دون تأخير ، ألن يكون ذلك أكثر حكمة ؟

وفى اللحظة الأخيرة أصحح الخطأ إذا كان ذلك ضروريًا ، ذلك ما ينصح به العقل ، لكن لم يبق لدى من العقل إلا القليل ، كل الأشياء تشجعنى ، فهل أموت دون أن أترك خلفى جرداً بالموجودات ؟ هأنذا أعود ثانية لمحاولاتى القديمة ، طبعاً يمكننى ذلك إذا عزمت أن أقوم بالمخاطرة ، طوال حياتى أؤجل تصفية الحساب تلك قائلاً : الوقت لم يحن بعد ، حسن ما زال الوقت لم يحن بعد ، حلمت طول عمرى بتلك اللحظة التى يرسم فيها المرء خطًا ويحسب مجموع ما لديه ، قبل أن يذهب كل شىء ، ويبدو أنها فى متناول يدى الآن ، فيجب ألا أفقد رشدى لذلك ، قبل كل شىء القصص ، ثم آخر كل شىء ، إذا سارت الأمور سيراً حسناً ، أقوم بالجرد .

سأبدأ بالرجل والمرأة حتى لا يزعجانى مرة أخرى ،قصمتهما أول قصة ، القصة الثانية لن أقصها ، فالمرأة دخلت مع الرجل ، ثلاث قصص ، قصتها ، ثم تلك التى تتحدث عن حيوان ، ثم التى تتحدث عن شىء ، ربما حجر ، ذلك واضح تماماً ، بعد ذلك أتناول ممتلكاتى ، وإذا بقيت بعد ذلك حيًا ، سأتخذ الخطوات الضرورية للتأكد من أنى لم أرتكب أى خطأ ، أما بعد ذلك فلا أعرف ماذا سأفعل ، لكننى أدرك من قبل أنى سأصل ، ستكون هناك نهاية للطريق الطويل المسدود ، يا إلهى ، ما أقل ما يعرفه المرء لا يهم ، إنه وقت اللعب الآن ، من الصعب التعود على ذلك ، الحيرة القديمة تعاودنى ، لكن الوضع الآن مختلف ، فالطريق واضح جدًا الآن ، وهناك أمل فى الوصول إلى نهايته ، عندى آمال كبيرة ، فما الذى أفعله الآن ؟ أفقد الوقت أو أكسبه ؟ قررت أيضاً أن أقدم موجزاً لحالتى الراهنة قبل البدء فى سرد قصصى ، أعتقد أن هذه غلطة ، ضعف ، لكن لا بد مما ليس منه بد ، بعد ذلك سألعب بكل حمية ، سيكون الموجز ملحقاً لعملية الجرد ، وبذلك تكون المعايير الجمالية بجانبى ،

بعض منها على الأقل ، حتى أتمكن أن أجتهد ثانية للتحدث عن ممتلكاتى . إذن ، فالوقت الباقى مقسم إلى خمسة ، أية خمسة هذه ، لا أعلم . كل شىء ينقسم فى نفسه ، أفترض ذلك . إذا بدأت فى محاولة التفكير ثانية « سألخبط » وفاتى .

لا بد من القول إن هناك جاذبية شديدة لهذا الطموح ، لكنى حذر خلال الأيام القليلة الماضية كنت أجد شيئاً جذاباً فى كل شىء ، فلنعد إلى الخمسة ، هناك الحالة الحاضرة ثم ثلاث قصص ثم الجرد ، أخاف من الفترات الفاصلة بين هذه الأجزاء ، برنامج حافل ، لا يجب أن أحيد عنه قيد أنملة ، أشعر أنى أرتكب غلطة كبيرة ، لا يهم .

الحالة الحاضرة : يبدو أن هذه الغرفة ملكى ، لا أجد تفسيراً آخر لتركى فيها كل هذا الوقت ، إلا إذا كانت إحدى القوى هنا قد أوصت بذلك ، وهذا يبدو صعباً جدًّا ، لماذا تغيّر تلك القوى من نظرتها إلىّ ؟ من الأفضل أن نتبنى التفسير البسيط ، حتى لو لم يكن سهلاً أو يفسّر الكثير ، النور الساطع ليس ضروريًّا ، شمعة صغيرة هى كل ما يحتاجه الإنسان ليعيش فى غربة ، هذا إذا احترقت بإخلاص ، أتيت إلى الغرفة ، غالباً ، بعد موت من كان يشغلها قبلى ، مهما كانت شخصيته ، لا أسأل كثيراً على كل حال ، إنها ليست غرفة فى مستشفى أو فى بيت للمجانين ، أستطيع أن أشعر بذلك ، فقد تصنت فى ساعات مختلفة من الليل والنهار ، ولم أسمع ما يبعث على الريبة أو بشىء غير طبعى ، وإنما ، أصوات مسالمة لرجال فى الغالب ، ينهضون ويستلقون ، يجهزون الطعام ، يأتون ويذهبون ، يبكون ويضحكون ، أو لا شىء إطلاقاً ، لا صوت ، وحين أنظر من النافذة ، يبدو واضحاً لى من إشارات معينة أنى لست فى أحد بيوت إيواء العجائز بأى معنى للكلمة ، لا ، هذه ليست إلا غرفة خاصة بسيطة فى منزل عادى بسيط على ما يبدو .

لا أذكر كيف جئت إلى هنا ، ربما فى عربة إسعاف ، أو عربة من أى نوع ، فى يوم ما وجدت نفسى هنا ، فى السرير ، ربما فقدت وعيى فى مكان ما واستفدت من الخلخلة التى حدثت فى ذاكرتى فى ألا تُستخلص نتائج حالتى حتى أستعيد حواسى فى هذا السرير ، بالنسبة للحوادث التى أدت إلى إغمائى ، والتى يرجع إليها أنى أصبحت كثير النسيان ، فإنها لم تترك أثراً على عقلى ، لكن من منا لم يجرب تلك الزلات ؟ إنها كثيرة وعامة خاصة بعد أن يكون المرء مخموراً ، كنت غالباً أسلى نفسى بمحاولة اختراع مثل هذه الحوادث المتشابهة الخاسرة ، ولكن دون أن أنجح فى تسلية نفسى فى الواقع .

ولكن ما هو آخر شيء أذكره ؟ يمكننى أن أبدأ من هناك قبل أن أسترد وعيى هنا ، لكنى نسيت ذلك أيضاً ، كنت أمشى بالتأكيد ، طوال حياتى وأنا أمشى ، عدا الأشهر القليلة الأولى وهذه الفترة منذ جئت إلى هنا ، ولكنى فى نهاية كل يوم من المشى لا أعرف أين كنت ولا فيم كنت أفكر ، إذن ما الذى أتوقع أن أتذكره وكيف ؟ أتذكر حالة ما ، مزاج ما ، أيامى الأولى كانت أكثر تنوعاً واختلافاً ، هكذا أراها حين تعود لذاكرتى بغتة فى نوبات ، ولا أعرف طريقى جيداً خلالها ، عشت فى نوع من الغيبوبة ، فقدان الوعى لم يشكل لى أبداً خسارة ما ، ربما فقدت وعيى بسبب ضربة على الرأس ، ربما فى غابة ، نعم ، فحين قلت غابة الآن ، أتذكر بغموض غابة ما .

كل ذلك ينتمى إلى الماضى ، أما الآن فهو الحاضر الذى يجب أن أبنيه قبل أن يثأر منى ، إنها غرفة عادية ، وعلى كل حال فخبرتى فى الغرف قليلة ، ولكن هذه تبدو لى عادية تماماً ، والحقيقة أنى لو لم أشعر بأنى أحتضر لاعتقدت أنى ميت ، أكفّر عن ذنوبى أو فى أحد بيوت السماء ، ولكن شعورى بأن لحظات العمر تنفذ يؤكد أنى لست فى السماء ، فى الجنة أو الجحيم ، الإحساس بأنى فى القبر تحت الأرض كان قويًّا

عندى منذ ستة أشهر ، ولو قيل لى أنى سأعيش كما أعيش الآن لابتسمت ، لم يكن أحد سيلاحظ الابتسامة لكنى كنت سأدرك أنى أبتسم ، أتذكر هذه الأيام الأخيرة جيداً ، ذكرياتها أكثر من ذكريات ثلاثين ألف يوم غريبة مضت من عمرى قبلها ، العودة إلى الوراء ستكون أقل دهشة ، إذا لم يحن الموت بعد أن أكمل الجرد ، سأكتب مذكراتى ، ذلك مضحك ، نكتة ، لا يهم ، هناك دولاب لم أنظر بداخله أبداً ، كل ممتلكاتى مكومة فى ركن ، فى كومة صغيرة ، أستطيع أن أعبث بها بواسطة عصا طويلة ، أجرها نحوى ، وأرجعها ثانية ، سريرى قرب النافذة ، أستلقى متجهاً نحوها معظم الوقت ، أرى الأسطح والسماء ، ولمحة من الشارع إذا مددت عنقى ، لا أرى حقولاً أو تلالاً مع أنها قريبة ، لكن هل هى قريبة ؟ لا أرى البحر أيضاً ، لكنى أسمعه حين يكون هائجاً ، أستطيع أن أرى ما يدور داخل غرفة فى منزل عبر الشارع ، تجرى هناك أشياء غريبة أحياناً . ناس عجيبة ، لا بد أنهم يروننى أيضاً ، برأسى الكبير مستنداً على قضبان النافذة ، لم يكن لى أبداً شعر طويل وغزير كما هو الحال الآن ، أقولها دون خوف من أن يبدو كلامى متناقضاً ، فى الليل لا يروننى لأنى لا أضىء النور أبداً ، لقد درست النجوم قليلاً ، لكنى لم أفهم الكثير ، ذات ليلة ، وأنا أحملق فيها ، وجدت نفسى فجأة فى لندن ، أمن الممكن أنى ذهبت يوماً إلى لندن ؟ وماذا تفعل النجوم لتلك المدينة ؟ من ناحية أخرى أصبح القمر مألوفاً لدىّ ، اعتدت على تغيراته الآن ، من المحاق إلى الهلال إلى البدر ، أعرف ساعات الليل بالنظر إليه ، وأعرف الليالى التى لا يظهر فيها ، وماذا أيضاً ؟ السحب ، إنها مختلفة ومتنوعة ، وكل أنواع الطيور ، تأتى لتحط على حافة النافذة طلباً للطعام ، منظر مؤثر ، تنقر قضبان النافذة بمناقيرها ، لم أعطها شيئاً أبداً لكنها ما زالت تأتى ، ماذا تنتظر ؟ إنها ليست نسوراً على كل حال .

لم أترك هنا هكذا ، بل هناك أيضاً من يعتنى بى ، وهذا ما يحدث الآن ، فالباب يُفتح تصف فتحة ، وتمتد يد لتضع طبقاً على طاولة صغيرة مخصصة لهذا الغرض ، تأخذ اليد طبق اليوم السابق ، وتغلق الباب ثانية ، كل يوم يحدث ذلك ، وفى الوقت نفسه تقريباً ، حين أرغب فى الأكل أشبك المنضدة بعصاى وأشدها نحوى ، فهى تتحرك على عجلات ، فتأتى تصر وتترنح ، وحين لا أحتاجها أرسلها عند الباب ، مكانها ، إنه حساء ، لا بد أنهم يعرفون أنى بلا أسنان ، أتناوله مرة واحدة فى المتوسط ، هم يحضرونه مرتين أو ثلاث مرات ، حين تمتلئ القصرية أضعها على المنضدة بجانب الطبق وأمكث ٢٤ ساعة بلا قصرية ، لا ، فعندى اثنتان .

لقد فكروا فى كل شيء ، أنام عارياً فى السرير ، وسط البطاطين التى أزيدها وأنقصها حسب تغير الفصول ، لا أشعر بالحر أو بالبرد ، لا أغتسل ، لكنى لا أصبح قذراً ، وإذا حدث واتسخ جزء من جسمى ، أنظفه بأن أفركه بإصبعى بعد أن أبلله باللعاب ، ما يهم هو أن تأكل وتتبرز ، الطبق والقصرية ، الطبق والقصرية ، فهما القطبان ، كان الأمر مختلفاً فى البداية ، المرأة تأتى إلى الغرفة مباشرة ، تنهمك فيما حولها وتسألنى عن احتياجاتى ورغباتى ، لم يكن الأمر سهلاً ، لم تفهم ، حتى وجدت ذات يوم التعبيرات والمصطلحات التى تناسبها ، ونجحت أن أدخل فى رأسها ما أريد ، كل ذلك يبدو كنصف خيال ، هى التى أحضرت لى هذه العصا الطويلة ، لها خطاف فى نهايتها ، شكراً لها ، فبها أستطيع أن أتحكم فى أبعد فجوة فى غرفتى ، ما أعظم ما أدين به للعصىّ ، حتى إنى أنسى غالباً الضربات التى لحقتنى منها ، كانت امرأة عجوزاً ، لا أعرف لماذا كانت طيبة نحوى ، نعم ، دعنا ندعوها طيبة دون مراوغة ، أعتقد أنها أكبر منى سنًّا وأقل تماسكاً رغم حركتها الكثيرة ، وهى تنسجم مع الغرفة إذا صح القول ، وفى تلك الحالة فهى ليست

فى حاجة لدراسة منفصلة ، ويمكن إدراك أن ما تقوم به هو نوع من العطف الخالص ، أو بدوافع عاطفية نحوى ، لا شىء مستحيل ، ولا أستطيع أن أنكر ذلك فترة أطول ، والأكثر إقناعاً أن نفترض أنى قدمت إلى الغرفة من أجلها ، كل ما أراه منها الآن يدها النحيلة وجزءًا من الكم ، حتى ذلك الجزء لا أراه ، ربما ماتت ، لقد سبقتنى ، ربما يد أخرى هى التى تضع الطعام وتنظف المائدة ، لا أعرف كم أمضيت هنا ، لقد سبق أن قلت ذلك ، كل ما أعرفه أنى كنت كبيراً فى السن قبل أن أحضر إلى هنا ، ربما بين الأربعين والخمسين أو الخمسين والستين ، مرت دهور منذ عددتهم ، أعنى سنوات عمرى ، أعرف السنة التى ولدت فيها ، لم أنسها ، لكنى لا أعرف فى أى سنة أنا الآن ، لكنى أعتقد أنى هنا منذ فترة طويلة ، فلا يوجد شىء من تقلبات الفصول لا أعرفه وأنا بين جدران هذه الغرفة ، وهذا لا يتعلمه المرء فى سنة أو سنتين ، وفى غمضة من جفونى تطير كل أيامى ، هل بقى شىء لم أقله ؟ ربما بضع كلمات عن نفسى ، يمكنك القول دون سرد كثير إن جسمى عاجز ، لا يمكنه القيام بأى شىء حيوى ، أحياناً لا أستطيع أن أستدير ، لكنى لم أصب بالحنين إلى الماضى بعد ، ذراعاى إذا كانتا فى وضعهما الطبعى ، من الممكن أن تكون بهما بعض القوة ، لكن من الصعب أن أتحكم فيهما ، كما أن لونهم الأحمر قد تلاشى ، أرتعش قليلاً ، ولكن قليلاً فقط ، صرير السرير جزء من حياتى ، لا أحب أن يختفى ، أقصد لا أود أن يقل . أستلقى على ظهرى ، لكن خدّى على المخدة ، ما علىّ إلا أن أفتح عينى ليبدأ كل شىء من جديد ، السماء ودخان الآدميين . بصرى وسمعى فى حالة سيئة جدًّا ، على العموم لا أرى ضوءًا ولكن ومضات معكوسة ، كل حواسى تعودت على جسدى ، جسدى ، الظلام والسكون والبلى ، أنا لست ضحية لها ، كما أنى بعيد عن أن أسجن بين أصوات الدم والتنفس ، لن أتحدث عن آلامى ، فحين أغوص عميقاً فيها لا أشعر بشىء ، وهناك أموت مجهولاً

من جسدى الغبى . ذلك الجسد الذى يُرى ، ويصرخ ويتلوى ، بقاياى المعتوهة ، تتصارع فى مكان ما فى هذا الفكر المضطرب ، علامة الموت الكبيرة ، إنها تطلبنى كما تفعل دائماً وحيث لا أوجد ، إنها لا تستطيع أن تظل ساكنة ، فلتصب نقمتها المحتضرة على الآخرين وتتركنى فى سلام ، هكذا تبدو حالتى الراهنة .

اسم الرجل سابوسكات ، مثل أبيه ، أهو اسم مسيحى ؟ لا أدرى ، إنه لا يحتاج لاسم ، أصدقاؤه يدعونه سابو ، ولكن أى أصدقاء ؟ لا أدرى ، بضع كلمات عن الولد ، فلا يمكن تجنب ذلك .

كان ولدا مبكر النضوج ، لم يكن مجتهداً فى دروسه ، ولم ير فيها أية جدوى ، التحق بمدرسته وعقله فى مكان آخر ، أحب الحساب لكن ليس بالطريقة التى يعلمونه بها .. ما أحبه هو التلاعب بالأعداد المميزة لا المجردة ، كل الحسابات بدت له تافهة حين لا تُحدد طبيعة الوحدات ، وقام بالتمرين ، وحده أو مع مجموعة ، على الحساب العقلى ، وتزاحمت فى ذهنه الأرقام محمّلة بالألوان والأشكال المميزة .

يا له من ملل ...

كان الطفل الأكبر لوالدين مريضين وفقيرين ، وكان يسمعهما غالباً ، يتحدثان عما يجب عمله ليصبحا غنيين وفى صحة جيدة ، وكان يُصدم كل مرة بغموض هذه الثرثرة ولم يدهش إذ لم تسفر عن نتيجة ، كان والده بائعاً فى حانوت ، واعتاد أن يقول لزوجته يجب أن أجد عملاً إضافيًّا فى الأمسيات وبعد ظهر السبت ، ويضيف بخفوت وأيام الأحد أيضاً ، وتجيب الزوجة إذا قمت بعمل إضافى فستقع مريضاً ، وكان يوافق بأن العمل يوم الأحد ، يوم الراحة ، أمر سيئ ، الناس الذين ينصحونه بعدم العمل كبار فى السن . وصحته ليست ضعيفة بحيث لا تسمح له بالعمل فى الأمسيات ، وتقول زوجته أى عمل ؟ أى عمل هذا ؟ ويرد : نوع من

أعمال السكرتارية ، فتقول : ومن يعتني بالحديقة ؟ كانت حياة سابوسكات مملوءة بالحقائق المقررة ، إحداها على الأقل متمثلة فى هذا العبث الإجرامى المسمى بالحديقة التى لا تحتوى أية زهور ولا يعتنى أحد بممراتها أو بخضرتها .

ويقول الزوج : يمكننى أن أزرع الخضراوات ، وترد الزوجة : شراؤها أرخص ، ويعجب سابو من هذه المناقشات ، وتقول : إنه فكر فى سعر السماد ، وفى لحظات الصمت التى تتلو ذلك ، يكيّف الزوج عقله ، بكل ما يستطيع ، ليفكر بأسعار السماد التى تمنعه من توفير الراحة لأسرته ، بينما الزوجة تستعد لاتهام نفسها بعدم قيامها بكل ما تستطيعه ، ولكنها تقتنع بسهولة بأن قيامها بأى جهد إضافى سيعرضها لخطر الموت قبل الأوان ، يقول الزوج : فكرى فى أجرة الأطباء التى نوفرها ، وتقول الزوجة : وفواتير الصيدلى .

لم يبق شىء سوى أن نتخيل بيتاً أصغر ، وتقول الزوجة نحن فى ضيق هنا ، ويبدو مفهوماً أنها بمرور سنة وراء أخرى سيصبحان كذا وكذا حتى اليوم الذى يغادر فيه المولود الأول البيت مفسحاً مكاناً لمولود جديد ، نوع من التوازن ، ورويداً رويداً يفرغ المنزل ، وسيكونان وحدهما فى النهاية ، مع ذكرياتهما ، سيكون لديها آنذاك وقت كاف للحركة ، فهو قد أحيل إلى المعاش وهى فى أنفاسها الأخيرة ، سيأخذان كوخاً فى الريف حيث لا يحتاجان إلى السماد فبإمكانهما الحصول عليه بكميات وفيرة ، وسيشكرهما أولادهما على تضحياتهما ويأتون لمساعدتهما .

وهكذا فى مثل هذه الأجواء من الأحلام المنطلقة تنتهى المناقشات . ويبدو أنهما يستمدان قوتهما من أحلام عجزهما ، لكن أحياناً ، قبل الوصول إلى تلك المرحلة ، يتوقفان ليتدبرا أمر مولودهما الأول ، فيسأل

الزوج : كم عمره الآن ؟ وتجيبه الزوجة ، فلقد اتُّفق على أن هذا من اختصاصها ، وكانت دائماً على خطأ ، ويبدأ الزوج يردد الرقم المغلوط مرات ومرات وكأنه يتساءل دهشاً عن ارتفاع أسعار سلعة هامة كاللحمة مثلاً ، وفى الوقت نفسه يبدأ البحث فى مظهر المولود عن تأكيد لما سمعه من زوجته ، أليس قطعة لحم لطيفة ؟ وينظر الولد فى وجه أبيه ، وجه حزين ، محب ، مدهوش ، محبط لكنه راض رغم كل شىء ، هل سينشأ فى سنوات قاسية لاحقة أو يطمئن عليه حتى يحصل على وظيفة ؟ أحياناً يعبر بقلق عن أسفه بأن ابنه لن يكون أكثر حماسة منه ليستفيد من المكان ، وقالت الزوجة : من الأفضل أن يستعد لامتحاناته ، وهو موضوع طرأ على ذهنه ، مما يوضح أن تفكيرهما يعمل بانسجام ، لم تكن محادثاتهما كلاماً عاديًّا ، فهما يستخدمان الكلمات كاستخدام حارس القطار لأعلامه أو مصباحه ، أو يقولان : هاهنا ما حصلنا عليه ، ويتساءلان فى حزن ما إذا كان السقوط المشين فى الإجابة التحريرية والنجاح السافر فى الامتحان الشفوى هو علامة العبقرية ، وعند هذه النقطة فى الحديث ، لا يكتفيان أحياناً فى الوقوع بالصمت وهما يتثاءبان ، قال الزوج : على الأقل فصحته جيدة ، وقالت زوجته : ليس تماماً ، قال : ولكنه غير مصاب بمرض محدد ، قالت الزوجة : شىء جميل لمن هو فى سنه ، ولا يدركان لماذا التزم أن يعمل فى مهنة حرة ، وذلك شىء آخر لم يناقشاه ، تخيلاه طبيباً ، يعتنى بهما حين يكبران ، وعلق الزوج : أفضل أن أراه جراحاً فبعد سن معين تستعصى الجراحة على الناس .

ما هذا الملل ، وأسمى ذلك لعباً ! أتساءل لماذا لم أعد أتحدث ثانية عن نفسى ؟ هل سأصمد إلى النهاية فى الحديث عن موضوع آخر ؟ أحس بالظلام القديم يتجمع ، والعزلة تستعد ، ففيهما أعرف نفسى ، ونداء المجهول النبيل شديد الجبن ، لقد نسيت ما سبق أن قلته ، لا يكون اللعب بهذه الطريقة ، فأنا لم أعرف بعد من أين أتى سابو ؟ أو ما هى آماله ،

ربما من الأفضل ترك هذه القصة والتحول إلى القصة الثانية أو بالأحرى الثالثة ، تلك التى تتحدث عن حجر ، لا ، فسيتكرر الشيء نفسه ، يجب أن أكون على حذر ، أتذكر ما قلته ، فكل توقف كارثة تهددنى ، يجب أن أتجنب النظر إلى نفسى ، فلا يوجد حل آخر ، بعد حمام الوحل سأكون أقدر على الصبر على عالم لم يلوثه وجودى ، يا له من طريق إلى العقل ، عيناى ، سأفتح عينى وأنظر إلى كومة ممتلكاتي الصغيرة ، ألقى بالأوامر المعتادة إلى جسدى وأنا أعرف أنه لن يطيع ، أتحول إلى روحى المتجهة إلى الهلاك ، أفسد سكرة الموت ، الأفضل أن أعيش بعيداً عن هذا العالم الذى يفتح شفريه ليدعنى أمر .

* * *

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة
– مقدمة : بيكيت وعالمه الروائى	٧
– الطـــــــــــــريد	٢١
– المهــــــــــــدئ	٣٧
– النهــــــــــــاية	٥٥
– مالونى يموت – مقطع –	٧٩

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهي نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الإبداع المختلفة .

هيئة المستشارين :

أ. إبراهيم فريح (مدير التحرير)

د. جابر عصفور

أ. جمال الغيطانى

د. حسن الابراهيم

أ. حلمى التونى (المستشار الفنى)

د. خلدون النقيب

د. سعد الدين إبراهيم (العضو المنتدب)

د. سمير سرحان

د. عدنان شهاب الدين

د. محمد نور فرحات (المستشار القانونى)

أ. يوسف القعيد

مطابع
ت ٩٣٢٢٧٠٦٠

النهايــة

فى هذه القصص الثلاث ، رجال عجائز يُطردون أو يغيّرون الأماكن البائسة المتواضعة التى يعيشون فيها ، يتحركون بحثاً عن مأوى جديد ، وهم غير متأكدين من شىء ، ويشركون القارىء معهم فى شكوكهم التى تشمل الذاكرة وعملية السرد نفسها .

البطل فى القصص الثلاث ، شخصية واحدة ، راوٍ متكلم ، دائماً فى حركة ، يصارع فى سبيل الأمور الدنيوية البسيطة ، المسكن ، الطعام ، التسلية ، ولا يصارع من أجل تأدية واجب معين ، ويظل حيَا لأنـه ببساطة حى . وبالإضافة إلى هذا الشخص المتكلم ونزواته وعدم قدرته على تذكر الحقائق ، يواجهنا شكه المستمر فى الأسباب الداعية لرواية حكايته .

القصص الثلاث تصور انحدار رجل جوّال من الطبقة المتوسطة إلى حيل التسوّل فى رحلة يقطعها دون دهشة أو حقد أو حتى نظرة إلى الخلف .

أيكون بيكيت أراد التعبير فى قصصه الثلاث عن الميلاد والحياة والموت ؟ ذلك جائز أيضاً .

إن نثر بيكيت الخاص ، ووصفه المرح ، ومعالجته الشعرية لمشاكل الإنسان المعاصرة مثل الوحدة والخوف واليأس ، تجعله مقبولاً من كل الأجيال ، فهو من أكثر الكتاب التصاقاً بطبيعة العصر الذى نعيشه .

دار سعاد الصباح

912